

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01010 1875

P
76
F8
M8
19

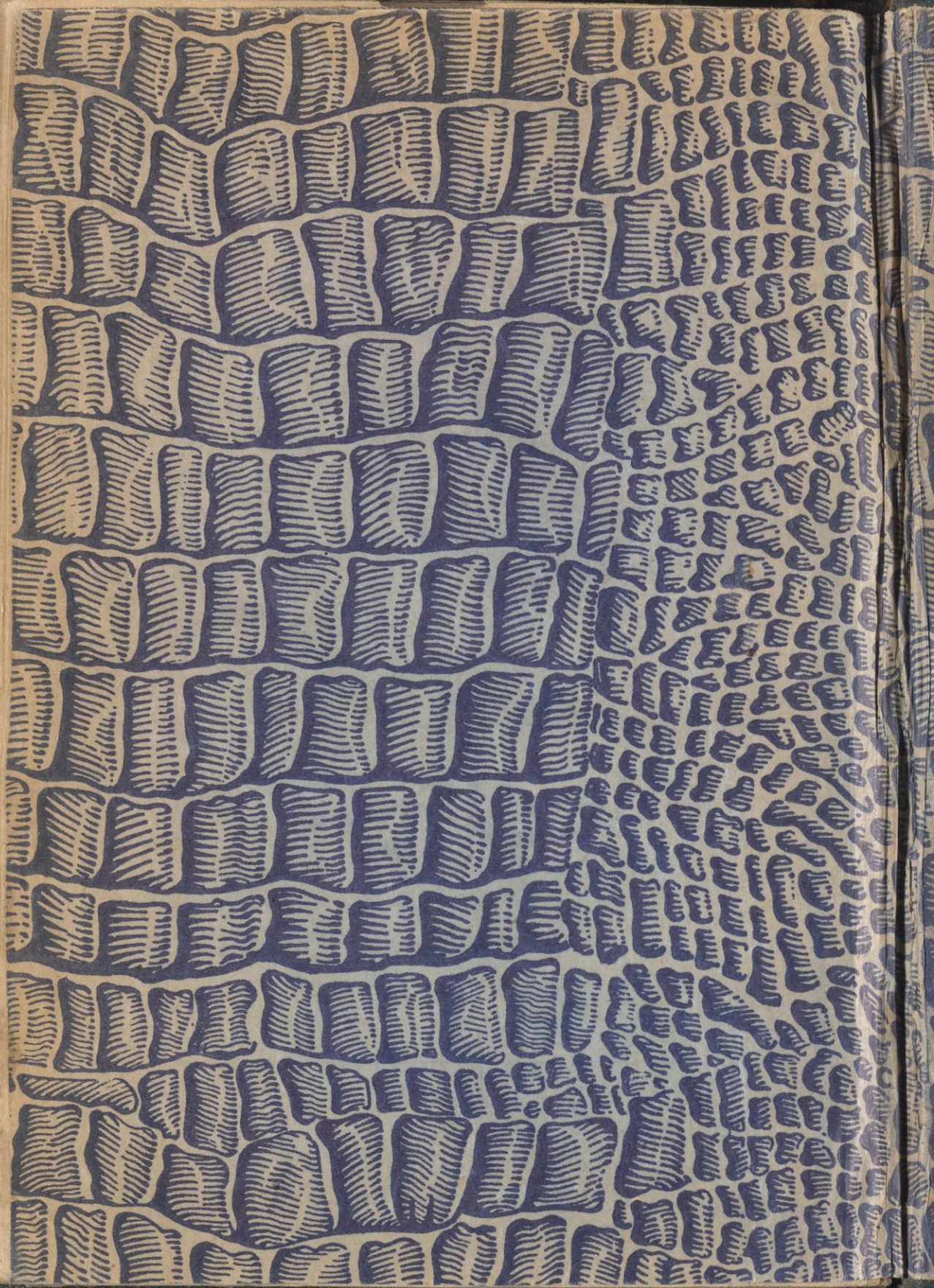
Library of
The American University
at Cairo



Happy is the man that
getteth wisdom and
man that getteth
understanding .+ .+ .+

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
Bolk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania



00 B5204

pat Jul 3rd

Muhammad, Ahmad al-Sāwī.

احمد الساعدي محمد

al-Āṣṭiyah.

PJ

7692

F8

M8

1943

احذر الغيرة ، تلك
الحرباء ، ذات الخليقة
الشوهاء ، والعيون
الخضراء ، التي
تسخر مما تتغذى به
من لحوم الناس ...
تكبير



(١)

العاصية



ملنزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

843
F928
Mek

١٤٣

AMERICAN LIBRARY
CAIRO

22517

الغلاف واللوحات الفنية
بريشة الفنان المجري الشهير
إريك دي مايش

الاهداء

الى س ...

الى تلك التي رايتها ومنجوعة
في فراش شتى ، كخالد به نور ،
الى جانبك كتيبي ، دني يرها « حياة قلب »
.. نقرأ وتعلم وتبسم ...
رايتك لحظة ، دم الزفر ، دم الكحل
ولن انساها ...

٥٢

تضمنين أمين

عن غرر الأدب الفرنسي وآياته التمثيلية والقصصية

في

الحب والغيرة

ييسر فرونديه . ساشا جيتري

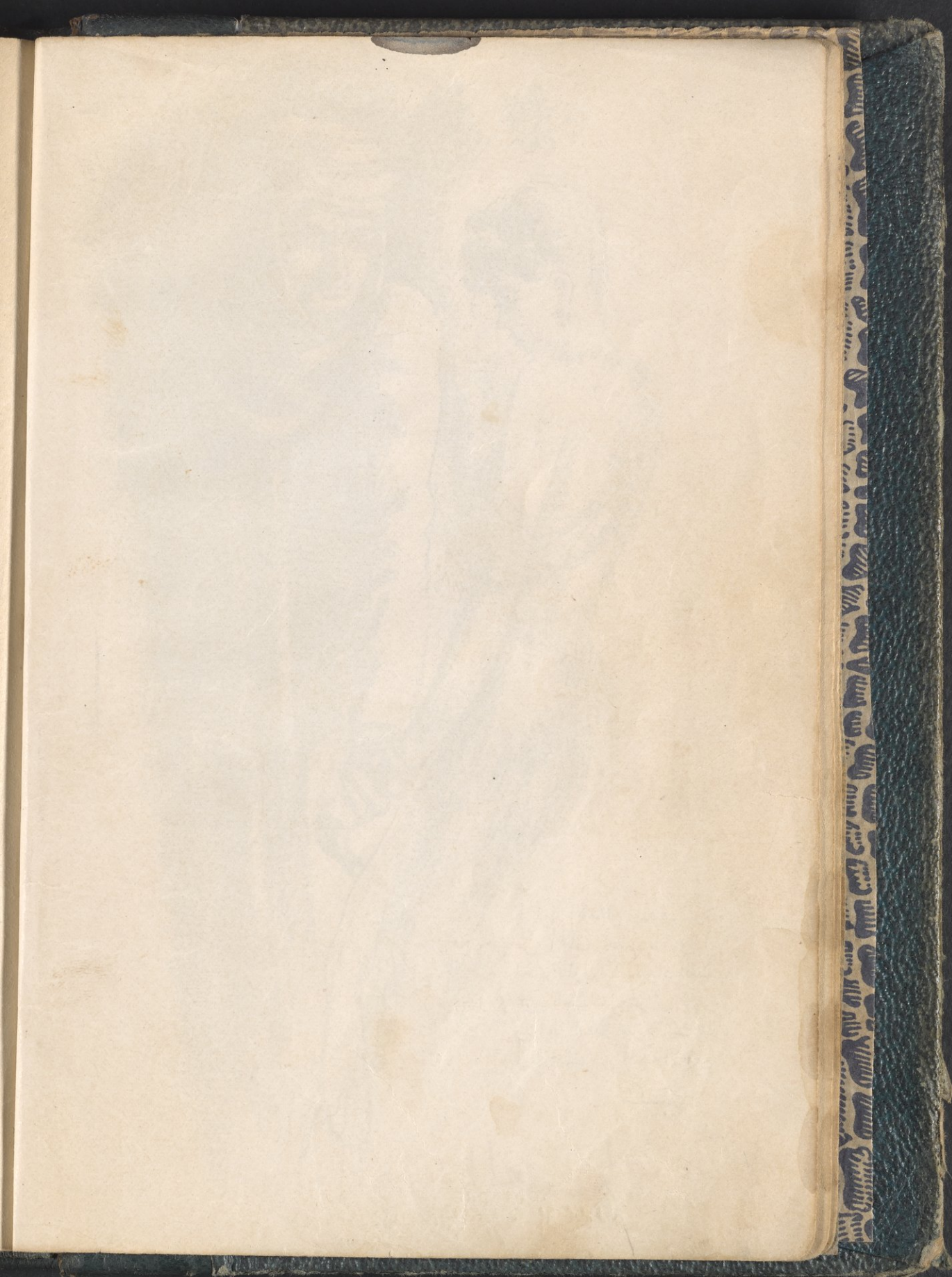
بول جيرالدى . أناتول فرانس



يا أيها الانتقام المدلهم ارفع
من أعماق جهنم ، ويا أيها
الحب تنازل لاستبداد الغضب
عن تاجك وعرش قلبي ،
ويا أيها الصدر ازرع تحت حملك
فإنما حملك من السنة الأفعى .

شكسبير

العاصية



العاصية

فرونييه كاتب موفق ذائع الصيت . فنان راسخ القدم ، يرضى الخاصة والعامة . وقد مثلت رواياته في أكبر مسارح باريس . بل إن واحدة منها قد اجتازت عتبة حرمهم الفنى « بيت مولير » (الكوميدى فرانسيز) . وتراه يؤلف ، ويقتبس ، شعراً وثنراً . وهو موفق الحظ في تأليفه ، وفى اقتباسه . وقد أخذت « العاصية » بلب الجمهور لأول وهلة ، لأن مؤلفها ، كما ذكرت لك ، خير بفنه ، غنى في ابتكاره ، مخصب الذهن ، قوى الخيال ، واثق من نفسه . وهو يندفع ويقذف بالأزمات الشداد والاضطهادات والمضايقات فى تضاعيف القصة ، فيدفع عن طريقه المعارضين . وتراه يتربص للنقد ، فيتخذ كل حيلة ليصده حتى يجعله يحبط ويعجز . وليس يخاف النقد ، ولكنه يتسلفه ، وينتظره ، ويتمناه ، فى شغف ومسرة . فإذا احتد أحد النقاد فتح له باب النضال على مصراعيه ، وانبرى له . حتى أصبح من المؤلف ، بعد كل قصة من قصصه

المسرحية ، وقوع مشادة مشهودة . ولكن النقد جميعاً قد انحنوا له عند ظهور هذه القصة . وهو يجد لذة خاصة في أن يدخل عناصر متناقضة يضارب بعضها ببعض في فصل واحد . حتى إنه في ثلاث ساعات التمثيل كان واقعياً ، وكان خيالياً ، وكان عالماً نفسانياً ، وعالماً جثمانياً ، وكان عالماً بالأجناس ، وعالماً بطبائع الشعوب ، وكان عالماً اجتماعياً . وترى دورة « العاصية » عنيفة طريفة . وليست « العاصية » امرأة أية كانت . ولكنها امرأة الغرب الحقيقية . وليس « فاضل » الزوج الذي يمثل الغيور الجبار فحسب ، ولكنه يمثل الرجل الشرقي الصميم . فالنضال بينهما ليس نضالاً روحياً فقط ، ولكنه نضال جنسى أيضاً . والذي يبينه المؤلف هو التناقض بين وجهتي النظر الشرقية والغربية في الحب والزواج . فالمسلم لا يقبل طريقة سير الباريسية وسلوكها . والباريسية لا تتصور تعدد الزوجات والطاعة المطلقة . وقد ذهب المؤلف إلى بلاد المغرب ، ودرس مختلف الآراء والعادات عن كثب .

أقبل الليل على الخدر متردداً في خجل . . كأنه يشفق أن يرى « فايين Fabienne » مضطجعة إلى جانب زوجها « فاضل Fazil » يذكران حفلة الأمس الساهرة ، ورقصهما معا حتى الصباح . وهي

تزعم لزوجها أنها خير الراقصين عند ما يلتصقان ويكونان جسما
واحدا . ولا ترى أن أحداً يرقص رقصهما ، ما خلا الشعبان ! ..
وترى تلك الباريسية قد أعطيت فوق خفتها المحببة نارا على نار .
أتعرف المرأة التي لا يستقر لها قرار ؟ ! إنها تهيم في الغرفة لا ترضى
جدرانها حداً لها ، وإن فيها لعالم متجدداً أبداً من المرح الفياض .
تؤاكل صاحبها وتشاربه وتداعبه وتلاعبه ، فلا يسكن إلا إليها ،
ولا يفكر إلا فيها ، ولا يحلم إلا بها . ويدق جرس التليفون ،
فتتأفف ، وتتنزع نفسها انتزاعاً ، وتتمنى لو أن لهما رقماً سرياً .
وتجيب الصوت متظاهرة بأنها الخادم . وتعتذر عن قبول دعوة
إحدى الأميرات العجائز اللواتي يسرهن عيش الشباب . ثم تعرض
عليه أن يتعشياً في مطعم « مدريد » ، فيرضى : « على أن أتمتع بسوق
السيارة ! أنا ! » . فتقول : « نعم ! . حاسر الرأس ، في ثوب السهرة
وإلى جانبك سواك ، وقد شحبت لونه حتى صار كالقميص إذ
تنقذف كالشهاب مخاطرأ بالحياة . فهل أنت تتأسى في ذلك بأبيك ؟ » .
فيقول : « ما رأى أبي قط السيارة . . ولكن جواده كان بعد
ساعتين من ركضه ينفث دماً . . » . فتسأله بلهفة : « وعندئذ ؟ . . » .
فيجيبها بكل بساطة : « وعندئذ يستبدله بغيره » . فتعجب ، وتسأله :
« أين تقضى الصيف القادم ؟ أفي « دوفيل » أم في « دينار » أم في

« إكس » أم في « سان سيباستيان » حيث رأيتك لأول مرة
فقلت : « هذا ! » ؟ .. »

فيسم بتهكم خفيف : « أنت اخترتني ؟ » . فتقول :
« أجل ! » . فيستدرك : « أنت اخترتني ، ولكنني أخذتك ! » . فتعجب
عليه : « ولماذا تذكر ذلك بشدة المتوحش ؟ أف ! ما أحب هذا » .
وهو يسترضيها واعداءً بأن يقول ذلك بلهجة أخرى . فتطلب إليه
أن يحاول ذلك ، وأن يحبب إليها ويتملقها . فيضحك ضحكة مذقة ،
ويقول : « أما التظرف والتملق فحاشا . . . أأجثو عند قدميك كامرأة
عند قدمي امرأة ؟ » . فتقول : « مثلاً ! » . فيثب ، ويحتضنها بقوة ،
ويقبلها بشدة ، سائلاً : « وهذا ؟ » . فتستغيث من الضاري . . .
فيأخذ يديها : « يداك الساحرتان تعرفان كل شيء . . . تلقيان على
الكرى بتريتهما ، وتوقظانني بدغدغتهما . . » . وإنها لترضى :
« ما ألد عناقك ! . . إني أحبك ! . . ولست أخرج ، كما ترى ، من
ذكر جي ! . . »

— لأنك باريسية !

— وأنت أعرابي !

أرأيت هذا السلام الحار ، والحب القهار ؟ ليت الناس يتركونهما
وشأنهما ، ولا يدخلون عليهما حرباً ! . . ولكن هيهات ! . . ألم يكن

« فرانس » محققاً في تهيبه عند ما كان ينظر إلى الباب يتوقع أن تدخل منه المصائب ؟

ويدخل زائر إذ ينصرف فاضل ، وهو « چان دى بهوبى Jean de Béhopé » رفيق من رفقاء صبا فايين كان يتمنى الزواج بها . ولكن ذلك العربى « فاضل العورقلى » ، وكان أيضاً من زملائه بجامعة أكسفورد ، قد فاز بها من دونه ، بينما كان چان فى أمريكا يجمع المال . فتراها ترحب به ترحيباً لا كلفة فيه ولا حشمة . . . فيسألها : لماذا آثرت ذلك الأجنبى ، وكان لها كثير غيره يطلبون يدها ؟ وما درجة بروءتهم بحيث نبذتهم وفضلت عليهم هذا البعل ؟ فتبسم فايين ، وتقول : « إننى ما شعرت نحوكم بالحب وشعرت به نحوه ، وقد عرفته فى ملعب الجولف بسان سيباستيان . . . وكان كل من ذكرت حاضرين يثرثرون حولى برغباتهم ويضيقون على الخناق بتمنياتهم . أما هو فلم يكن ينبس ببنت شفة ، وكنت أسمع هواه الصارخ فأعجبني . وقبلته غير معنية بمعرفة ملته وجنسه » .

فتظهر على چان علامات الألم لذكريات حبه إياها ، ويهمهم ، ويودعها ، فتأبى أن يتركها على هذه الصورة ، وتتشبث به . وكأنها ، على غير وعى منها ، ترضن بهذا الحب ، فتقول : « دعنا نقطر دماء الماضى وننظف الجرح القديم ، حتى يلتئم ، ونعود أصدقاء » . وتقدم إليه يدها

بانعطاف ، داعية إياه إلى العشاء في تلك الليلة . فينحني ، ويلثم يدها قائلاً : « يالك من جسارة ! . . . » . وفي هذه اللحظة يدخل فاضل على غفلة منهما ، فحين يرى هذا الموقف يستشعر في جسمه جوع كلب الصيد الذي يوشك أن ينقض . . . ولكنه يكظم غيظه ، ويقرب مبتسماً يبادل السلام . . . فيعتذر چان بأنه ذاهب لارتداء ملابس السهرة ، لأن فايين قد تفضلت بدعوته إلى العشاء ، وكيف لاتطاع فايين ! ويستأذن . وترافقه فايين حتى الباب ، ويظل فاضل بلاجراك كمن أصيب بضربة باغته . . . وتعود فايين تقول : « ما كنت أعلم أن چان رفيقك في الدراسة ، ولقد فرحت بهذه الزمالة ! » . فيجيبها في تأن وخفوت صوت : « إذن فانتظري خمس دقائق ، ثم أعلنه بالتليفون ألا يحضر » ! . . فتدهش ، وتتساءل عما يقول ! فيرتعش غيظاً ، ويقول : « إننى لا أريد أن أرى هذا الرجل مرة أخرى » . . ويضم قبضتيه ، ويتجهم وجهه . وسرعان ما صار « عطيلاً » ! . . أليس مغريباً مثله ؟ أليس زوجاً لأجنبية مثله ؟ أليس غيوراً مثله ؟ أليس يريد ، بما في دمائه من وراثة ، سلطاناً غير محدود على المرأة المحبوبة ؟ أليس يأبى أن يعلق ظل شبهة في فضيلتها ، أو في أميالها ، أو حتى في أفكارها وخواطرها ؟ . . وتسأله عما لا يرضيه منه . فيجيب : « لا شيء ! » . فتقول : « إذن هو تصرف أمراء ! » . فيقول : « على الملامة . .

ولكني أظنه قد أحبك يوماً ما ! » . فتقول : « إنه عبدني عبادة وباح
لي » . فتأخذه الرجفة . ويتمالك . ثم يأمر : « مضت الخمس الدقائق . .
فاضربني التليفون ! . » . فتتجه إلى التليفون : « سأفعل حالاً ،
وإنما لأدعوه إلى المبادرة بالحضور ! . » . فيحذرها صائحاً : « فايين !
فايين ! » . فتتذمر : « إنني لا أحب هذا الصوت ! فلا تردده أبداً
أبداً ! إنني لا أقبل ذلك ، ولا أسمع بأن تأمرني . إني أحبك كما تعلم ،
ولكنني أحب حريتي الكاملة . ولما طلبت مني الزواج طلبته بصوت
عذب حنون ، فذاك الصوت هو الذي أحب أن أسمعه ، ولا أحب
سماع صوت سواه ! »

— ولكنني لم أصرخ !

— لم يكن ناقصاً غير هذا ! .. إنك لم تصرخ ، ولكنك
قلت : « إني أريد ! » وأنا لا أطيق سماع كلمة « أريد ! » . . .
فيجلس فاضل كتمثال من خشب ، محققاً أمامه بنظرة ثابتة .
فتدنو منه بحنان : « كفي غيرة حمقاء . وإني لأصفح عنك هذه
المرة . . . ولكن لا ترجع . . فما أسرع انكسار الهناء » . فيخطف
يدها ويمسح بها وجهه ، ويقول بصوت ناعم : « قولي له ألا
يعود ! . . » . فتتشبث : « كلا ! . إني أعرف ما على عمله ، ولا أريد
فاضلاً صلب الرأي . فلا تكن هكذا . وعدني ألا تعود ! . . »

فيتسم فاضل ابتسامة حزينة كابتسامة الطفل المريض . ويتعد
قائلاً : « لا تسأليني وعداً ما . . . »

لما رأيت الابتسامة الشاحبة أشفقت عليهما ، وأحسست أن
سيكون بينهما ، غير الشهوة واللذة ، الدم والموت .

وأعلن الخادم حضور صاحبين لهما : مسيو چاك دى برينز

Jacques des Bereuze وزوجته هيلين Hélène . أما الرجل فمن

هواة الخيل قد ارتضى حظه من العيش على قدر طبعه وكما وقع له .

لا يتفلسف ولا يفكر ولا يغار ، فلا يتعذب ! . وامراته تستبيح كل

شئ بلا استثناء ! . ولن أستعير قولها البريء إنها تروح وتجيء

وتخرج وتدخل وترقص طول النهار بينما هو فى حلبة السباق . فإن

كل هذه الأشياء تكون فاضلة متى كانت المرأة فاضلة . تحاول أن

تصرف فاضلاً عن الغيرة الحمقاء ويحاول ذلك زوجها . وهى تقول

لفايين : « دعيه لى أغزله وأغزله لك نسيجاً جديداً . وأنا الكفيلة بأن

أروضه وأرضيه ! » . ثم تقول لفاضل : إنها قد تربت وفايين فى

نيويورك ، وفى نيويورك يطيع الرجال النساء . أما فايين فتأبى أن

تنزل لأحد عن زوجها . وتخرج لترتدى ملابسها بعد أن تطلب إلى

فاضل أن يتسم . فإذا جاء چان يلقاه بابتسامة أخرى .

فكانت كأنها تخمد النار بالزيت . ويضرب چاك الأمثال بأخته

التي هي أيضاً « بنت ناس طيبين » لهم قربى موشوجة الأعراق مع
 تمسكهم بتقاليد الأسرة . فإنها تذهب ، ويشهد الله أنها طاهرة ، إلى
 النزهة في خلاء « موندو » . ولا يرى زوجها حاجة تدعوه إلى أن
 يطاردها حيث ذهبت ، فيروح بدوره إلى « إكس » ! . . فيسمع
 فاضل كل هذا غير مكترث ، بل منصرفاً إلى تكوين همه وغمه ولا
 يعارضهما . بل يقول : إن الحق في جانبهما . ولكنه هكذا خلق ،
 ولن يستطيع لطبعه تبديلاً . ويقسو صوته : « إنني ذاهب . . فقولوا
 لفايين تفعل ما يحلو لها » . فتعترضه هيلين ، وتعيذه أن يأتي هذه
 الحماقة وله كل ما يهيه أسباب السعادة . فيجيبها : « نعم . ولكن
 ليس هنا . وداعاً ! » . . ويمضي لا يلوى على شيء . فلا يكاد چاك
 يصدق عينيه . وتعتقد هيلين أن فاضل لن يعود . وتدخل فايين ،
 فتحتمى المكان بنظرة ، وتقلق إذ لا ترى زوجها . وتعلم أنه ذهب
 عنها إلى المجهول . فانظر إليها تنوح كالشكلى ، تطوف بالبيت على
 غير هدى ، كأن الحى قد ذهبت بعقلها ، وتهتف باسم فاضل . فيعلن
 الخادم وصول « جناب الكونت چان دى بهوبى » !

نحن فى الفصل الثانى ، وقد عاد فاضل إلى مدينة « فاس » مسقط
 رأسه . واستعاض عن « الفراك » بالشال والسر وال ! يعيش فى قصر

أجداده سادة الأطلس العالى وزعماء عشرين قبيلة مغربية ، محوطاً
بخدمه وحشمه فى عز ذلك الشرق القديم الكريم ، ويسمع جواريه
يتشا كين إهماله إياهن وانصرافه عنهن . فإذا عاتقنه ظل شارذ العقل
بارداً كالرخام .

ويدخل عليه « الحاج إسماعيل » ، وهو شيخ من كبار القواد
الموالين لفرنسا . ويبدأ يروى لفاضل الوقائع التى حدثت فى غيبته
والغارات التى شنوها على العصاة ، وأنه عز عليه أن مر بقصره فرآه
خالياً . فاعترضه فاضل بأنه ملآن بالخدم والحشم والجند . فيقول له
الحاج إسماعيل : « إن القصر يظل خالياً ما غاب عنه سيده » ! ويحييه
فاضل بأنه كان فى أثناء تلك الملاحم لاهياً فى أوربا ، أما الآن فقد
تحول قلبه عنها ، وارتد أعرايياً كآسلافه ، يعيش تحت النخيل
يستنشق نسيم الصحراء ، ويلعب السيف والخيول ، وقد أحسن
بأن يرجع ، وهكذا يرجع كل شىء إلى أصله . وما التقدم إلا حدث
طارئ ، والزهرة تسقط مهما أينعت ، وتعود إلى عنصرها الأول .
وقد هجر « مدينة النور » كما يدعون ، ونزع زيهم ، ونبد السيارات
الفخمة والخيول الإنجليزية وعاد إلى الخيل العربية الأصيلة المرنة الرشيقة .
وهو لا يرى أنه كسب من ذلك الاحتكاك بالغرب إلا العلم بأنه كان
سيخسر كل شىء !! فيداعبه الحاج إسماعيل دعابة الشيوخ الرزينة

الحقة : « وكل ذلك بضربة من جناح عصفور ، فكيف كان ذلك العصفور ؟ ! » . . فيجيبه بأنه ما عاد يذكر . فيهنئه ويحذره بأنه من احترقت عيناه بنور القمر لا يستطيع السير في ضوء النجوم ! ويرى فاضل أن الإرادة خير عصا تقود الأعشى .

إنه يفخر بإرادته ، وبأنه قد تحرر من المرأة والحب ، ومن عشرين عاماً قضاها في أوربا . وأنّى له أن يعلم ما بيّته له المرأة التي اختارته والتي أخذها ، وإلى أي حد يسوقها ويسوقه حبهما ؟ وعبثاً يعتقد المرء بنفسه في الحب .

وها هي ذى فابين قد جاءت من تلقاء نفسها ، وقطعت الفيا في ، واخرقت البادية كالمتكشفين ! . . إلى حد أنه لم يعد حولها رقص ولا موسيقى . . وإنما رمال شاسعة وجمال تهدر وجياد تصل . . يشرف عليها قصر فاضل ناظراً بعيون فارغة . وكانت تصحبها صديقتها هيلين دي بريز وزوجها . ويخلو بها فاضل فتتقى أنها جاءت لتراه ! . . ومع أنها أتت ، ومحيطها دليل على أنها خفضت جناح الذل من المحبة ، فإنها تكابر ، وتتقنع هذه الطاعة بحجاب من كلمات الأنفة والكبرياء . فيسخر منها ، وينصح لها بأن ترحل وتعود أدراجها من فورها ، لأن الرجل الذي تبحث عنه قد مات ، وأنه قد قتله عند خروجه من مدينتها ، فقد كان له روح عبد رقيق .

فتقول :

— إن كنت قد قتلت رجل الماضي فإني أراه حيا أمامي ! إننا
نعتمد أن شبح القتيل يظهر أمام الجاني . وهذا الشبح يدخل فيه
ويلبسه ويسوده ! ولقد كنت بياريس بين ذراعي طليقا خورا فوق
الحب تأمر وتنهي ، ولكنك الآن تنكر وتجت عن جنة نفسك ،
وتناديني وتأسف وتتلهف عليّ ، وتبكي من منذ شهرين .. أيها الرجل
العصى الدمع ! إن امرأتك بين يديك !

فيسألها : ماذا تقول ؟ فترفع محياها إليه ، وتشعل جسمه بنار
جسمها وفؤادها . وتكرر : « أقول إنني امرأتك » .. وهو يحاول
الخلاص ، وهي تلح عليه ، وتضغطه بين ذراعيها ، وإنه ليستنجد
بربه ! .. فتقول له : « دع ربي وربك ! .. إن للعشاق حياة ..
وليست الحياة الكبر ، بل الحب ! إنك أخذتني حارة ناعمة بين
ذراعيك ، وما عدت تريدني الآن ! ما أعجب هذا ! .. إن كلينا يفتش
عن صاحبه .. إننا معا .. دائما معا .. لو أن بيننا البحار لظللنا معا ! ..
يفرقنا الكبر ، ولكننا مع ذلك معا .. يفرقنا الجنس الذي هو قدر
الإنسان ، ولكننا على ذلك كله معا ! .. أفلا تشعر ؟ إن كلا منا
سجين الآخر ! .. يا عزيزي الوحش الضاري .. يا كلب الصيد
الضال .. أيها الطائر الكاسر .. الهارب مني .. وينتظرنى ! .. » .

وهو ينفى أنه ينتظرها . وهي تؤكد له أنها امرأته . . زوجته . .
حليته . . فلا يستطيع أن يمسك بعد نفسه . . لقد استعرت اللوعة . .
فينقض عليها . . فتسأله في حر العناق ضاحكة ضحكة عصبية عن
ستكون نصيبه الليلة من جواريه ! . . فيتركها ، ويقول مختصرا :
« من عليها الدور ! » . فتريد تلك الباريسية الفاتنة ، المتكبرة ،
السيدة ، ذات النزوات ، أن تكون جاريته هذه الليلة ، على
أن تودعه في الصباح وتساfer ! . . فيقبل . . وتدخل هيلين جاهرة
بالضحك ، لأنها تراهما ما زالا على قيد الحياة ! . . وتصارحها فايين
بأنها ستقضى معه تلك الليلة . فتدهش لطيشها . فتسأل فايين :
أليس من حقها أن تقضى ليلة عند زوجها ؟ فتسأل هيلين فاضلا : أهذا
مقترحه ؟ فينفى . فتسأله فايين : أفلا يريد إاذن مع علمه بأنها كما
عهد لها شائعة جميلة ؟ ! فيذكرها ، في عينيها ، بأنه قد هجرها . فتقول
بأسى إنها تذكر . وتلح عليها هيلين بالخروج ، وتصر فايين على البقاء .
وتقول لزوجها : « امتثل لقضاء الله » . فيقول : « لا بأس بهذا القضاء » ! . .
فتضحك ، وتنفس الصعداء : « ها هو ذا قد أقر أخيرا بأنه يشتهي !
وإذا لم يطلب منى في الصباح المغفرة فإنه يكون حقا قد غلبني » .
وتنصرف عنهما هيلين . فلا يخفى فاضل ارتياحه لانصرافها . فتسأله :
« إلى هذا الحد أنت سعيد بوجودي ؟ » . فيقول : « أجل ! » . فتضحك

ضحكة الفائزة : « أرايت أنك ستأسف علىّ عند ما أسافر غداً ؟ » .
فيقول : « لا ! » . فتسأل : « كيف لا ؟ » . فيجيبها : « لأنك ستبقيين ! » .
فتصرخ فايين وتنادى هيلين . فيقول لها : « لات حين نداء ! إنك
رجعت إلىّ فأسلت من جديد دماء قلبي ، وقد كاد الجرح يندمل ،
وأردت الانتصار ، فها أنت ذى قد انتصرت . وما قلت لك قط إني
أحبك . فاسمعي اسمعي : إني أحبك ! أحبك ! ولن تخرجي من هنا
أبد الدهر ! » . فتراجع وتتهمه بالخليل . فيتلطف في صوته ، ويدنو
منها قائلاً بحنان : « إني أحبك .. أحبك .. أحبك ! » . فتراخي
ركبتها لهذا البوح الذليل ، وتتساقط على الأرائك المبتوثة وهي
تدعو فاضلاً وتناديه ، وكأنه رضيعها تناجيه وتناغيه ! ...

مضت ثلاثة أشهر على فايين ، وهي في قصر فاضل تتمتع
بحبه ، وتشقى بسجنها . أليست معذورة ؟ كيف لا والحب وإن
كان سيد المشاعر المطلق فللنفس نزعات إلى الحرية ، ولها أيضاً
سلطانها ؟ ! ولكن هل ترى الحب أولاً وآخرًا إلا مظهرًا من مظاهر
الحرية ، حرية الاختيار وحرية الاستمرار ؟ ! ...
طلبت فايين الطلاق . وسعت سراً بمساعدة جارية اسمها
مريم . ودبر بقية الوسائل أصحابها چان دى بهوبى ، وچاك دى بريز

وامراته هيلين . وكانوا باقين برا كش منذ جاءت فايين إلى فاس . .
وطلبوا إلى فاضل أن يسمح لهم بالقدوم لمقابلتة ، فأجاب طلبهم . .
وذهبت هيلين إلى حجرة فايين . ويطلب چان وچاك من فاضل أن
يطلق سراح سجينته . فيهزأ بهما ويدهش : « أتطلبون مني أن أترك
لكم امرأتى ؟ تالله ما سمعت بهذا ، ولا في باريس ! . . تأتون عندي
فأضيفكم وأكرم مثواكم لأسمعكم تطلبون امرأتى منى ؟ أفيمن يقول
ذلك مسكة من العقل ؟ » . فيرجوه چان أن يكف عن سخريته ،
وآلا يلج في العناد بحجز فايين عنده على كره منها ، وإن كان
القانون والسياسة كلاهما لا يقف حجر عثرة في سبيله . . ولكنه
يطلب ذلك من رجل شريف . فيجيبه فاضل بأن امرأته له إلى آخر
نسمة من حياتها :

— إننى منذ غادرت أوربا كثيراً ما تأملت في معاملتكم
النساء ومعاملتهم إياكم . . فوجدت خطأ شاملاً شائناً . . فأى
جرثومة تشوهكم وتقلب مشاعركم ذكوراً وإناثاً ؟ حبكم مهزأة
لسيادة الرجل ، والعشق فيكم كأنه مرض عقلى دفين ، يفيض كل يوم
بخليط عيب ومآس مؤلمة وأزمات جنسية . كل يوم تفيض جرائدكم
ومسارحكم ومحاكمكم بمشا كل شهواتكم الفاسدة . . فما السبب ؟
ذلك أنكم مع الرجال رجال ، ولأنكم مع النساء مخانيث ! . . .

فيقول له چان : « لقد فهمنا مبادئك ، وهنا بجانبنا ضحيتك ! »
فيسأله فاضل : « أية ضحية تزعم ؟ أتحسبون أنني إذا فتحت لها
الأبواب تخرج راضية ؟ ». فيقولون : « نعم ». ويطلبون ذلك . فيبسم ،
ويقول : « دعوا عنكم هذا الظن ، فإن نساءكم يمشين في الطرقات
مقدمات أفواههن للمارة ، فتسمع أطهرهن قبل أفسقهن في كل
خطوة نداء المجهول الملحاح المتكرر بالفحشاء . . . فأين رجالكم الذين
يدفعون هذا ؟ وإن المرأة منهن تتنزه في دوقيل بينا زوجها في
إكس ! » . . . فيرد عليه چان بأن هذا كلام غيور لا يعتد به ، فيجيب :
— ومن ينكر الغيرة ؟ إنني أحتقر وقفاتكم في الحب ، حتى إن
نفسى تتقرز منها وعيني تقذى . . . إنني لا أفهم المرأة التائهة في
الشوارع بينا زوجها حبيس مكتبه . . . إنني لا أفهم برود الرجل
الذى يرى امرأته ترقص في حضن رجل آخر . . . ولا أفهم الرجل
يشتاق إلى امرأته في ساعة من النهار ويريد أن يلقاها ، فلا يعرف
أين هي . . . إنني لا أفهم . . . إنني لا أفهم ! . . .

فانصرفا إلى الحديقة في انتظار هيلين ، بعد أن يتسا من الأعرابي
الناثر الذى ظل على الفطرة البدوية لم تغير طبعه دراسة أكسفورد
ولا معيشة أوربا زهاء ربع قرن . وفي تلك الأثناء ألحت هيلين
ومريم على فايين لتهرب ، فترددت . وقالت : « إنني أنتظر أمر القاضى

بالطلاق وسيجيء الليلة ، وإلا فوعدنا إشارة بمصباح أحمر .
ويجيء الحاج إسماعيل حاملاً رفض القاضي الطلاق ، إذ ليس له
مبرر شرعى ، ويبشرها بأن وحدتها ستجد أنيساً فى شخص فتاة من
أشرف وأغنى القبائل المراكشية تدعى : « اسم الله » :
درة من عقائل البحر بكر لم تنلها مثاقب اللآلئ ! . .
ويحمد الله على أن قرار القاضي لم يدنس اسم فاضل العورقلى ،
وإلا لأخرج موقفه أمام قبيلة أصهاره الجديدين . . فترتجف فايين
غيظاً وألماً . . . إنها فوق سجنها تنتظر « الضرة » ! . . وتشور فى وجه
الحاج إسماعيل ، فيهدئ من روعها قائلاً إنها الزوجة الأولى فلها
الخطوة ، وعليها أن تكون القدوة . . وينصرف . . فيدخل فاضل .
فتقول له : إنها قد وهبته جمالها وحبها وحياتها ، وتركت كل شباب
بلادها من أجله ، وإنه قد هرب منها فى غضب ليلة ، فلحققت به ،
وهى فرحة بالعيش معه ، ولكنها لن تحتمل أن يتزوج من غيرها .
فيقول لها : إنه قد وعد بهذا الزواج قبل عودتها ، فليس له أن يرجع
فى وعده ، فتضرع إليه ، وتتعلق به ، وتتمنى عليه ألا يشقيها بالضرة ،
وتسأله : لو أنها اتخذت رجلاً آخر ، فماذا كان يصنع ! ؟ فيمتعض ،
ويعدها بأن سيكون لها فى قلبه المحل الأول . . . وحين لا تجد إلى
تحقيق رجائها سبيلاً تهيب بمريم أن تضىء النور الأحمر علامة

الهجوم المصطلح عليها ، للفرار ... فتفعل ...
 أما ولم يبق على الفراق إلا دقائق معدودة ، فإن فايين تأتي
 فترقد إلى جانبه ، وتعانقه ، وتضع بقية روحها الباقية في ذلك
 العناق ! ... وتذكره بسان سيباستيان ، وتذكره ليلة الغرام الأولى ،
 وتذكره عهد باريس ... وعندئذ تسطع المصاييح الحمراء ، وتحقق
 في الظلمات المخيفة بعيونها الدموية . فتنهض فايين فجأة ، وتنفض
 عنها سحر الهوى ، وتشهر مسدسها كأنها انقلبت لبوة كاسرة ،
 وتصيح به : « لقد دقت ساعة الخلاص ! » . فيفهم ، وينادى حارسه
 الخاص . فيفتح الباب ، ويتدحرج عند قدميه محتضراً . ويدخل
 جان وچاك ورجلان معهما ... قهقهة فايين : « ادخلوا ! هلموا !
 خلصوني من هذا الرجل ! زير النساء ! .. خلصوني من هذا الرجل
 ذى الأربع النساء ، الذى كان يملكنى بكليتى ، ولم يكتف بى ! .. »
 وتحشرج صوتها بالغضب والحب : « وداعاً وداعاً ! .. إلى
 أوربا ! إلى أوربا حيث أجد رجلاً .. لى وحدى ! .. » . فيتملص
 فاضل من الرجال الممسكين به ، فيطعنه چاك بالخنجر فيخر صريعاً ! ..
 فتصرخ فايين فى چاك ! وهم يسرون بها على رغمها : « ماذا فعلت
 أيها الشقى ؟ ! إنهم قتلوه ! .. إنهم قتلوه ! .. يا ويلتاه عليك يا فاضل !
 يا فاضل ! .. »

ويظل الصدى وراءها ينوح على فاضل . . .

نحن في الفصل الرابع ، في فيلا چان دى بهوبى فى بياريتز .
فوجد فايين متلفة آيسة . يحاول چان أن يعزيها بجميع الوسائل ،
يقيم الحفلات الراقصة والمآدب ، ويحيطها بكل ضروب التسلية
والعزاء . ويجهد وصحه فى أن ينسوها ذلك الأعرابى . وهى تنوء
بحمل آلامها الذى أنقض ظهرها ، وتضيق ذرعاً بكل ما حولها .
ونرى چان يتقرب إليها بدعوتها إلى نزعات شاطئ البحر فى
الليالى المقمرة ، فهذا أنفع لصحتها . ويعرض عليها السفر
إلى باريس . فتأبى ، وتقول : إن الأيام كفيلة بأن تشفيها .
وينصرف الجميع . وتخلو بمريم جارتها القديمة التى أحببتها فهربت
معه . وعندئذ ينفتح أمامك قلبها الكسير الذى حطمه الحب
المفقود فما انتفعت بعده بالعيش . فتسألها مريم مدهوشة :
أتأسف على سجنها ؟ ! فتتألم فايين ، وتقول : « إننى ما كنت قط
سجينة . إن السجن يبتدىء عند ما يظن الإنسان نفسه سجينة .
إنى آسفة على أنه كان فى يدي الهناء والحب ، وكل شئ من
السعادة . . وبنزوة غضب وكبرياء لفكرة سخيفة ، فكرة هوس
وغرور بالظواهر ، قد ذبحت هنائى » .

— لست أنت التي ذبحته ، ولكنه هو .. فلماذا لم يكن
كرجال أوروبا ؟

— ولماذا لا أكون كنساء العرب ؟ ؟

فتدهش مريم .. فتمسح فايين على رأسها :

— إنك يا بنيتي صغيرة لم تعرفي الهوى ... ماذا تفعلين
بالحرية ؟ إنني الآن أشد أنسراً مما كنت . اذهبي فلا تحبي أبداً .
وإذا أحببت .. أطيعي ! ...

فتسألها مريم : « أطيع الرجل » ؟ فتجيبها : « كلا .. وإنما الحب ! »
فتقول لها : « ولكنهما سواء » .

— يخيل إليك أنهما سواء . ألا فاعلمى أنى مصيبة في زعمى .
فإذا أحببت أطيعي ! . إنني فهمت ذلك بعد ما سبق السيف
العذل . إن المرأة في كل مكان ، حتى هنا ، سجيننة .. سجيننة كلمتها
« نعم » ، ولكن هذا الفرق تافه لا يذكر ، ولسوف تجد في طريقها
غداً الرجل الشاكي السلاح الذي يحول بينها وبين أن تتعدى حدودها
التي رسمها لها وفرضها عليها فرضاً . فإن كان ذلك قريباً أو بعيداً فهي
ملك الرجل ، أما إذا كان هذا الرجل يمثل حبها ، فهي تكون مجنونة
إذا خالفت أمره ، لأنها غداً ستطيع رجلاً آخر لا تحبه . إنى عصيته
ليلة ما ، ليلة كنت فيها ، في باريس ، سعيدة كل السعادة . فثرت

مندفعة بالكبرياء ، وقلت : « كلا ! » لمن كان كل حياتي ، بسبب رجل لا يهمني ، وقد ولدت كل مصائبي ومصائبه من تلك الدقيقة ، تلك الدقيقة القصيرة بزمنها ، الطويلة بويلاتها ، لقد كنت : العاصية . ومن ذلك الحين بكيت ، وتألمت ، وصرخت صراخاً أشد من العواء . . . إنه سيدك وسيدى . وقد قتلوه يا مريم فمات حقاً . وإننى هنا حرة فى الظاهر ، وإننى فى الحقيقة لسجينة هذا الذى لا شأن لى به . وبسببه عصيت ، وهو اليوم يملكنى . فاذهبى ، فالعبي ، ولكل امرئ لعبه . واذكرى . . . اذكرى أن تطيعى إذا أحييت !

وتخلو بنفسها ، فتحدث نفسها : « إننى رأيت سواد ليلي ، ذلك الحبيب الصغير الذى مات عني . حقاً ، إن كل هذه المأساة وليدة عصيان ليلة . وكنت قبل ذلك هائلة هنا أيضاً معه . أما الآن فقد انتهى كل شيء » .

وتبكي . . . فيدخل فاضل ، ويحييها بصوت هادئ تحية المساء ، فتصرخ دهشة وسروراً بهذه المفاجأة السعيدة : « وافرحتى ! أنت حى !! » .

فيقول : « أتخسبيني ميتاً ؟ » . فتنفى ذلك ، وتتألم لما أصابه على يدها ، وتشكو له ما لقته من عذاب البعاد . وكانت فى ثياب السهرة ، فيسألها عما إذا كانت ذاهبة إلى الرقص . فتقول إنها كانت ذاهبة ولكنها كانت مسوقة . فيقول متهمكاً : « مطيعة ! » . فتجيبه : « لا تتهمك ! لا تتهمك ! تعال فى حضنى ولا تتكلم ! » . فيفعل . فتصيح :

- يا للهنا ! فليات الموت إذن ! ..
- أليس كذلك ؟ ! .. ولكن .. مع من تعيشين هنا ؟
- ومع من تعيش هناك ؟
- أنتقابل كعدوَّين لدودين يتقاتلان على شفا جرف هار ؟
- لا تقل ذلك ، فليس في قلبي إلا البهجة والحنان والصفح ..
- الصفح ؟ .. مع من تعيشين هنا ؟
- فتسأله : « أنت آت لتأخذني ؟ » . فيسألها : « أتبعينني ؟ » .
- فتجيبه بصراحة : « نعم ! » . فيقول : « جئت لأخذك ، ولكن عجلي .. فقريبا ما نفاجأ بدخول أحد » . فتجيبه : « لا تحفل بذلك ، إن چان مشغول في مسألة » . فيلتفت بعنف : « چان ؟ ! » .
- ويتجههم ، وتبدو على ملامحه عذابات عميقة ، ويقص عليها ما كابدته من آلام بعد أن طعنه أصحابها . فتقول له : « لا تحي أمانى هذه الدقيقة ، إنها تميتني » . ويذكر لها انتظاره أن يعود فيبحث عنها ويستردها . فتسأله عن زواجه الثاني . فيقول إنه قد تركه الآن ، ولا يحسب أنه يعود إليه . فتجذبه إليها وتردد عليه هذا القول ، وتمنى النفس بطيب العيش والشفاء مما كابداه من آلام : « سأترك كل شيء لأجلك ! .. » . فيقول : « نعم .. كل شيء ! .. » .

فتنظر موجسة خيفة إلى النافذة كأنها تخشى قدوم إنسان ،
فيسألها : ما لها قلقة مترقبة ؟ فتجيبه : « دع هذا .. دع هذا .. »
— أنت امرأتى وتترقبين غيرى ؟ . فمن ذا الذى تترقبين ؟
— أتريد أن نذهب حالا ؟
— نعم .. حالا .. حالا ! ..
ويضغط على يدها وخزاً بخاتمه المسموم .. فتصرخ ألماً ،
وتسأله عما فعل . فيقول :

— استرددتك .. أتذكرين الليلة التى قلت لك فيها إننى
أحبك لأول مرة فى قصرى وأجبتنى بأنك امرأتى ، وأردت أن
تكونى امرأتى ، وقلت لك إنك لن تخرجى ثانية من ذلك القصر ،
فخرجت ، وفى خروجك طعننى برجال آخرين ، وسافرت مع
رجال آخرين ، وعشت مع رجال آخرين .. لقد استرددتك ! ..
فيثقلها السم ، ويبدأ يشل بدنهما . وتمسك يدها المائتة كما
تمسك « مكبت » يدها الملوثة بالدماء بحذر .. كأنها تخاف من ذات
يدها .. أليس فيها الموت الذى يسرى ، ولا يقف ؟ ..

— أيها الشقى ماذا فعلت ؟ إنى أحبك ، ولا أحب سواك .

— مع من تعيشين هنا ؟

— أيها الخبول المعتوه ! .. الموت .. الموت الهائل بيننا ! ..

والنسيان .. بضع دقائق أخرى وينتهى كل شيء .. ثم لا أعود
فأعرفك .. ادن مني .. اقترب .. لا تدعني أموت وحدي ..
خذني بين ذراعيك .. اضممني إليك .. أفلا تأسف على شيء ؟
— كلا ! كلا ! .. فقد كنت معتما ذلك منذ أيام ..
— عيناك ! .. هات عينيك .. لآخر مرة ! .. قتلتي
يا غرامي ! ...

فيتهدج صوته بالحب الشقي إذ قضت فايين :
— آه ! .. ها أنت ذى .. ها أنت ذى ! كل حياتي .. أسمعيني ؟
إذا ما ذكروني قالوا : استرد فاضل امرأته .. واختفى ...
ويدخل الخادم ، فيقول له آمراً : « لا تأت بحركة .. إن مولاتك
نائمة .. أطفئ من هذه الأنوار .. هات معطفي .. ضعه على كتفي ..
اذهب الآن .. ولا تنس أن تقول لمولاك : إن فاضلا قد عاد ... »



همدت الحياة الطائشة ، وسادت الوحشة الخرساء ، وأرخت
الظلام سدوله الحزينة على ذلك الطالع المنحوس . لقد أخذ العربي
بثأره ، وأخضع بالسهم عاصية الحب ، فأطاعت الموت . وتزوّد منها
قبل الرحيل نظرة أخيرة ، ثم أشاح بوجهه ، وخرج متثاقلاً ...
حيّاً .. ميتاً ...



زوجان

لاني لأوثر أن أكون صرصاراً يعيش
من أبخرة السجن على ترك جزء من
الشيء الذي أحبه لمتاع الآخرين ...

شكسبير

نالی

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين

الطاهرين

زوجان

هذه قصة رأيها في باريس عام ١٩٣٩ ، حيث مثلت لأول مرة ، فأعجبت بها كثيراً . ولعل قرأى واجدون في هذه القصة مثل ما وجدت مزيجاً شائقاً من الحلاوة والمرارة .. من اللذة والألم .. من الجد والعبث .. من الحزم والدلال .. من الشفقة والغضب .. من الرحمة والقسوة .. من الحب والغيرة ..

إنها تحليل دقيق مروع لفعل ذلك السم القاتل الذي يدعى الغيرة ، وكيف يسرى من الروح إلى البدن ، ومن البدن إلى الروح .. إن الغيرة هنا حالة احتضار تحولت فيها عرائس الحب إلى أشباح بشعة وهياكل عظمية مرعبة ! .. سنرى كيف تبدأ الغيرة ، ثم تتدرج ، ثم تتعمق ، مظهرة في كل مرحلة النكبة التي حلت بروح كائن لا يمكن لعزاء أورجاء أن يشفيه .. لقد طبعته تلك الغيرة الوحشية الموروثة في دماغنا من أسلافنا في الهمجية الأولى بطابعها الذي يفعل بالنفس مالا يفعله الحديد المحمى في النار بالجسم ... وقد

تبدو ، هنا أو هناك ، بارقة أمل في خلاص النفس من انحدارها إلى تلك الهاوية المظلمة .. ثم تلوح استحالة ذلك .. فهيئات .. لقد أصدر القدر حكمه ؟ ..

لقد أجمع النقاد الذين شهدوها على أنها قصة نادرة ، لأن مؤلفتها كراوية قصصية هي « كوليت » السكاتبة الشهيرة الخبيرة بقلوب الرجال وعواطف النساء ، و « بول جيرالدى » شاعر الحب مؤلف « أنت وأنا » و « يحب » إلخ .. فلا يمكن أن يتعاون قلمان وروحان من هذا الطراز إلا ويخرجان للمسرح عجباً ..

ويمكن تلخيص هذا التلخيص في ثلاث جمل ... رجل يعبد زوجته .. فعرف أنها يوما ما خاتته .. ومثل هذه الخيانة الطارئة التي لم يسبقها إصرار ، ولم تكن لها عودة ، ولم يبق لها في نفسها أثر ، قد تعودها الرجل الأوربي الحديث ، واغتفرها ، وأخذ نفسه بالتسامح وسعة الصدر ، ولم يعد يقتل ، بل لم يعد يطلق لمثل هذا .. فالقتل كان شائعاً ، والناس على فطرتهم الأولى ، والطلاق صار « موضة » قديمة .. فهو يبيع الإثم وتستمر الحياة ..

ولكن الرجل في قصتنا هذه قد حاول أن يأخذ نفسه بالعفو ، وإدراك ما أصاب زوجه من نوبة الحواس ، ودوار المشاعر ، فلم يستطع ، رغم تمنيه ذلك .. وظل الجرح الذي يحمله لا يلتئم ... وبدأت أدنى

تفاصيل حياتهما الزوجية تثيره وتنغصه ، حتى لم يعد يطيق الحياة ،
فوضع لها حداً ...

لا نكاد نرى في هذه القصة غير ثلاثة أشخاص ، هم الثالوث
الأبدى الذى يكون وقائع الحياة وغرائبها وطرائفها : رجلان وامرأة .
أما « أليس » بطلنة هذه القصة فامرأة جميلة من ذلك النوع من
النساء الذى خلق ليحب ، وقد أحبت زوجها « ميشل » من أول
نظرة . . كان صرافاً فى بيت من بيوتات الأزياء الشهيرة فى باريس ،
وكانت هى فنانة مبتدئة ترسم « الفساتين » وتبيع رسومها ، فقصدت
« الصراف » لتأخذ ١٥٠ فرنكا ثمن رسمين ، فكانت النظرة الصاعقة
التي بدلت حياتهما ، فتزوجا . . . ونتج من هذا الزواج تعاون مادي
متين ، فأسسا داراً من أنخم دور الأزياء الباريسية أيضاً ، وأيدهما فى
ذلك ومد لهما يد المعونة المادية والمعنوية صديقهما « بوردييه » ، وهو
صاحب مصنع من مصانع النسيج الكبرى التي تخرج الأقمشة التي
ترسمها أليس ، وتبيعها فى كافة أنحاء العالم . .

غير أن حركات الإضراب فى فرنسا خلال عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٧
ومطالب العمال وتقلبات السياسة قد أضعفت إقبال البلدان الأجنبية
على باريس ، فتأثرت محال الأزياء حتى أصبح محل أليس وميشل

بحاجة إلى سند مالى سريع مع ضغط المصروفات الطائلة التى تنفق
بسواء عادة على دور كل قوتها وسرها فى مظهر الواجهة ، وسلامة
الذوق ، وجمال « المانكان » — عارضات الأزياء — وبراعة البائعات
التي تبلغ أحياناً مرتباتهن عشرات الألوف ..

نحن على ساعات من باريس ، فى « عزبة » ميشل وأليس
الذين جاء لقضاء بضعة أيام ترويحاً للنفس واستعداداً لاستئناف
مجهودهما لتقديم معروضات الربيع ... فترى خادمة هذا البيت
الخلوى « ماريا » التى تعرف سيدها ميشل قبل زواجه ، وهى
غليظة الطبع جافة الخلق ، لا تكاد تطيق أليس ، وتخدمها على
رغمها ، حتى إنها ترضن بإحضار فحم وخشب إلى الموقد لتصطفى
سيدتها من برودة الجو فى ذلك البيت الريفى العتيق .. محتجة بأن
سيدها أمرها هذه السنة بالاقتصاد ... وتشعر من حديث
السيدة وخادمتها أن أليس شديدة العناية بطعام زوجها ، والتأنق
فيما يرضيه ..

وتسمعان صوت محرك سيارة « رولز رويس » تقف بالباب ،
فتدهش أليس لهذه الزيارة المفاجئة ، لأن القادم بوردييه ، ومصنعه
على نحو خمسة وأربعين كيلومتراً من هذه العزبة ، وقد علم بقدومها ،

جاء لأن له حديثاً مع ميشل .. وميشل الساعة غائب يتجول في
أرضه ويتفقد زراعتها وكرومها ودرجة غلتها ... فتستمهله وترجوه
أن يتغدى معها، فيعتذر بأنه لم يخبر زوجته وأولاده .

ويتحدثان عن الأنسجة والأزياء، فتعجب عليه تأخيره في
إخراج مجموعة الربيع ، مع أن منافسيه من أصحاب المصانع
قد أرسلوا إليها مجموعاتهم ، فوعدها بأن ذلك لن يتأخر عن أيام ..
وقد حقق لها ما طلبته منه من منسوج لفساتين السهر ذهبية
وفضية ، تلبس الأجسام بحنان وتهدل ذيولها بقوة وتلامس
النظر في حرارة ..

وكانت هي في تلك الأثناء قد جلست إلى منضدتها ترسم
« مانتوهات » ، وبوردييه ينظر معجباً بهذه المرأة الجميلة الفنانة
وهو يهيم بالانصراف . وكأنه قد تنبه إلى حديثهما الطويل في التجارة
والصناعة ، ذلك الحديث المادى الجاف ، فراح ينظر إليها نظرة
الرجل إلى المرأة .

— مالك تنظر إليّ هكذا؟! هل شعري غير مصفف؟ هل
على وجهي بقعة حبر؟!

— كلا .. كلا .. إنك فاتنة .. إني أنظر إلى لهجتك ! .

— إلى لهجتي؟! ماذا أصاب لهجتي؟

— إن نظرتك نظرة رجل .. وتحيتك لى تحية رجل ..
وحديثك حديث عمل .. أهذا وحده بعد كل ما كان بيننا ؟ .

— ما كان بيننا ؟ ! وماذا كان ؟ .

— أتكرين ذلك ونحن الآن وحدنا ؟ أتريدى أن تلقى فى
روعى أننى كنت حاملاً ؟ !

— حالم ؟ حالم بماذا ؟ .. إنى لا أفهم مما تقول حرفاً ! ..

— إنى ما كنت لأشير إلى ذلك تصريحاً ولا تلميحاً لو أننى
رأيت فى عينيك شعاعاً من العطف ، من الذكرى ، شيئاً من
الضغط فى مصافحة اليد .. لاشئ ! لاشئ ! .. إنه فطيع منك هذا
الجحود والإنكار ! ..

— جحود ماذا ؟ ! إنكار ماذا ؟ ! يا للألغاز ! ..

— فيغمض بورديه عينيه ، ويردد من ذا كرتة خطابها إليه :

— « إنى مازلت مضغضة يا حبيبي من هذا الهناء الذى منحتنى

إياه ... من تلك اللحظة التى كنت فيها بين ذراعيك لا أدري أين
أنت منى .. وأين أنا منك .. »

— أنا قلت هذا ؟

— إنك كتبته إلى ! ..

— أنت مريض تهذى ! .. لماذا لا تعالج نفسك من هذا الهذيان ؟ !

— حسناً . . لنفرض أنني لم أقل شيئاً . . إلى الملتقى يا أليس . .
ويهمهم بوردييه بالانصراف ، فإذا بها تناديه ، وتسأله أن يغلق
الباب ، وترجو منه ألا يكون قد احتفظ بهذا الخطاب . . فيؤكدها
لها أنه في خزانته بالمصنع ! . . وأنه حريص عليه لأنه لم يعد لديه
منها غير هذا الخطاب ! . فتسخر من رجل أعمال مثله يتمسك
بنبش الفراخ ! . . وتلح عليه في أن يرد إليها رسالتها التي كتبتهما
بعد ليلة غاب فيها زوجها في لندن ، حيث كان قد ذهب ليعرض
أزياء الصيف . وقد تعشى عندها ، طعاماً شهياً وشراباً قوياً . .
ولم تدر بعد ذلك ما حدث . بل إنها إذا كانت تدرى يومئذ فقد
نسيت بعد ذلك بتاتاً ، ومسح ذلك الشيء التافه من حياتها تماماً
ولم يعد له أثر . .

أما هو فيقول إنه مهما يكن ذلك قد مر سريعاً ، سرعة الشيء
غير المنتظر ، فهو لم يفكر بعد ذلك في شيء سواه ! . . وهو يعلم
أنها تحب زوجها ميشل ، فلما عاد انتهى بعودته ذلك الحلم ، أو ذلك
الكابوس ! . وعاد هو إلى الوحشة والحرمان ! .

وكذلك تذكرت فجأة أنها أيضاً قد تلقت من بوردييه رد ذلك
الخطاب فأين وضعته ؟ ! لا تكاد تذكر ! . . وي . . إنها لم تمزقه . .
إنها وضعته في بعض ثيابها . . فماذا يحدث لو أنه وقع في يد زوجها ؟ ! .

وتجربى تبحت عنه ، حتى تجده .. فتعبره بنظرها .. فتدهش لما
فيه من اعترافات .. وتتساءل : كيف كانت تعيش وفي جيبها هذه
المواد المتفجرة ؟ ! ..

وتصيح بالخادم ماريا أن تحمل إليها نارا .. ويخرج بوردييه ،
وتنحني أليس لتشعل الموقد بيديها ، تتعجل النار لتحرق الخطاب ،
وإذا بزوجها يصل ! ..

أرأيت إلى ظروف الحياة وكيف تتكون حوادثها القاهرة من
لا شيء .. من كلمة ، أو نظرة ، أو إشارة ، أو قصاصة ورق ؟ !
أرأيت إلى أخطر ما فى الحياة يتكون من نشوة عارضة أو
نزوة من النزوات وبدوة من البدوات ؟ !

إن ميشل قد رأى الورقة ، وحاول أن يعرف ما فيها مزاحًا منه
ولهوًا .. ولما رأى الممانعة الشديدة من زوجته أصر وصمم ، حتى إنه
لوى ذراعها وأخذها قسرا عنها .. وهى تصرخ به ألا يقرأها بل
يمزقها ويحرقها . فلما قرأها كاد يصعق . إذ عرف خط صاحبه ..
فسألها تفسيرا .. فتقول فيم التفسير ؟ ! فيرى أنها صادقة لأن الأمر من
الجلاء بحيث لا يحتاج إلى دليل .. وكان التاريخ يناير سنة ١٩٣٧ ،
تاريخ غيابه فى لندن .

ترى ميشل قد سقط كالطائر الكسير الجناح . ترى ذلك

الشباب المؤاتي وتلك القوة المتدفقة قد تلاشت وانحطت فوهن
منه العظم فجأة ، كأنه شاخ وعجز في لحظة ، فيتساءل في ألم وذل
وخضوع يرثى له مما أصابه .. وأليس تقسم له ، والدموع في عينيها ،
أنها له ، ولم تكن إلا له ، ولا تحب في الدنيا رجلاً سواه ..

ويسمعان دعوة الخادم إلى الغداء . فيحاول أن يتغلب
على ضعفه ، وأن يقول إن نصيبه ليس أشقى من نصيب
ألف غيره ، وإن هذه الأمور أصبحت جزءاً عادياً من حياتنا
التي تجري .. ويخفف دموع زوجه بمنذيله حتى لا يسيل
خضاب رموشها « الرومل » . متصنعاً التجلد والمرح والاحتفاء
بألوان الطعام ...

ولكن ثق أن السم قد صار في الدسم ، ولن يهنأ لهما بعد الآن
طعام ولا شراب ..

ستشتبك الأمور وتتعدد ، وتزداد تعقداً .. لأن الخيلة ستفعل
فعلها ، وتجسم له المعلوم والمجهول .. لقد أصبحت الخادم تراقبهما ،
وترى أن سيدها لم يأكل ، وأن سيدتها ، وهي تتناول فنجان
القهوة ، كانت يدها ترتجف ... أصبح جو هذا البيت الخلوى
الهادئ أشد جلبة وضجيجاً من مصانع النار والحديد ... إن نار

الغيرة تأكل قلبه ، وهو إذ يعترف بأن ذلك يحدث كل يوم إلا أنه لم يكن لينتظره .. إن كل رجل دائماً يزعم أنه آخر الرجال الذين يمكن أن تخونهم زوجاتهم .. ولكن هدوءه المصطنع لم يلبث أن انكشف عن سورة الغاضب الراغب في معرفة أدق التفاصيل .. يريد اعترافاً بحقيقة واقعة هو مع ذلك يعرفها ... يريد أن يرى ما مثلاً أمامه ، مرة أخرى ، كل جانب من جوانب الخطيئة ، يقلبه ، ويعين فيه النظر ، ويحاسبه ! ..

أليس — إليك يا ميشل .. حكاية هذه .. هذه الحماقة التي ارتكبتها ..

ميشل — هذا العار ! ..

— هذا العار إذا شئت .. هذا العار الذي مر في كياني بسرعة خاطفة ، أثناء غيابك ، ليس له ما تظن من أثر ، أو ما تزعم ، إمعاناً في إذلالى .. ولم يكن ذلك شغفاً مبالغاً أصابني ، أو فتنة مفاجئة بهرتني .. فأنت تعلم أنني كنت مريضة ، عندما غادرت باريس ، مضناة بعد إعداد أزياء الربيع .. وأن الحمى أخذت مني فلزمت الفراش .. وكنت قد أوصيتني أيضاً عند سفرك بالالتجاء إلى بوردييه إذا ما احتجت إلى شيء ، فسألته أن يحىء ليصرف البريد المتراكم بعد سفرك ، وينظر في المستعجل منه .. فجاء ..

وتعاوننا على إنجاز الرسائل ، وأنت تعرف ، وكنت كثيراً ما تلومنى
على أنى لا « أستلطف » صاحبك ، بل كنت أجده رجلاً عادياً
إن لم يكن تافهاً . . .

— بل كنت تجدينه قبيحاً ! . .

— إذن فاعلم أنى وجدتنى فى حالة المرض ، ومع المعاونة التى
أداها بإخلاص وحرارة ، وجدتنى كنت ظالمة . . فهو رقيق الشعور ،
مرهف الإحساس ، مطبوع الذوق ، وتحدثنا عن شبابكما معاً ،
وروى لى أشياء طريفة عنك . .

— أنت تميّتينى من الضحك ! . .

— وعلام الضحك ؟ ! . .

— دعينا من التفاصيل التافهة ولا تخرجى عن الموضوع . . .
قولى بصراحة ودقة . . كيف كان ذلك ! ؟

— لقد كنت مريضة كما قلت لك . . فى دور النقه . . وأنت
تعرف ما يتبع هذه الحالة من الضعف ، وتلاشى الإرادة ، والحاجة
إلى الثقة والعون . . أنا فى حاجة لأن أروى لك تفاصيل الحالة
العصبية التى تأتى من الحمى ، واللقاء المنفرد المندفع عن الثقة ،
والعطف الطريف الناشئ الذى يحاول أن يجد منفذاً للتعبير عن
نفسه بالاسترسال غير المنظور ، غير المتوقع ، غير المتعقل ،

الاسترسال الحيوانى إذا شئت ...

وتنظر أليس إلى زوجها فتجده لا يتحرك ... فتمضى
فى كلامها ...!

— أما بعد .. فهذا يكفى ! .. أليس كذلك ؟ ! .. أرانى قد
بذلت جهداً كافياً .. فاعلم أنه العار طلبك منى بياناً وتفصيلاً ...
وأى عار ! .. وكفانى سؤالاً واستجواباً ! .. تكلم الآن ! .. فقد
جاء دورك ! .. هل فهمت على الأقل أم لم تفهم ؟ .. يمكن بعد الذى
قلته لك أن نستريح ، وأن نتنفس الصعداء فى هذا الجو الخانق
الذى لا يطاق ! ! ..

— ماذا قلت لى ؟ .. إنك لم تقولى يا بنيتى المسكينة شيئاً
عظيماً ، غير أنك ارتكبت أمراً إدّاً .. والأدهى من ذلك والأمر أنك
تمهدين له بذكر الميل والانعطاف والثقة ! .. الثقة ؟ .. ويلاه من
ثقة المرأة ! .. إنك لم تقولى إنك وقعت فريسة نوبة قدرة من
نوبات الحرارة .. أو أنك قد انقلبت لحظة من إنسانة إلى حيوانة ..
فإننا ندرك ذلك .. ونعلمه .. وقد نعتفره لخطأه وبهيميته ..
ونخادع أنفسنا بقولنا إنه دوار عارض خفى أصابها من حيث
لا تدرى .. أما العطف الحار والحنان .. فأعاذنا الله من حنانكن ..
يا بنيتى المسكينة ..

— إذا دعوتني مرة أخرى « بنيتك المسكينة » رميتك في وجهك بهذا الفنجان ! .. لا تسألني لماذا ، وإلا وقعت في هذا البيت مصيبة .. إن الحيوانة المسكينة قد حاولت أن تفسر لك كل شيء .. فماذا كانت النتيجة ؟ ! ..

— اخفضي من صوتك فإن الخدم يسمعوننا ! ..

— لقد استوى لدى كل شيء .. إنك إذا أصررت على تسميم حياتنا معاً بهذه الصورة تركتك وذهبت .. أسمع أنت ؟ !
كفاني ما لقيت منك .. كفي ! كفي !
— سبحان الله ! ..

— « وسبحانك » ! .. إنني امرأة .. إنني امرأة .. ماذا تظن المرأة ؟ ! .. إنني ملك لك .. وهذا مفهوم ! .. وإنني مخطئة ، وهذا معلوم ! .. ولكن ما وقع قد وقع ، ولا أستطيع بعد شيئاً ! .. فاضرب ، واقتل إذا شئت ! .. أما عفواً أبواه ! .. وصفحاً أماه ! .. فلا أعرف هذا القول ..

وأما الجثو أمامك على ركبتي ، أو ضم كفي ، أستجدي الرثاء ، وأتقن في التوسل والندم ، والنحيب والألم .. فليس هذا طبعي ، ولا نوعي ! .. إنني شقية تعسة ياميشل ! .. أفاهم ؟ شقية ، وقد عودتني الهناء ، فلا أستطيع احتمال الشقاء ! .. ولا أستطيع أن

أعيش في جو مخنوق مكتوم الأنفاس ...

ثم الحب ! حبنا ! ... أجل .. إنه التفاهم المتبادل ، والحرص
على المعاونة ، وإدخال السرور على النفس ، والشغف بالعيش ...
ماذا تريد مني ، وقد خلقت هكذا ؟ !

— إنك تقولين إن تلك حكاية قديمة مضى عليها عام ...
فصبراً جميلاً ! .. إنه لم يعض على معرفتي بها ساعتان ! ..

— أعرف ذلك يا ميشل .. وهذا عذرک .. فابذل جهدك ، ولا
تجعل كل هذه الشقة الطويلة فاصلاً بيني وبينك .. رجاء يا حبيبي ! ..
فيبدو على ميشل أنه يتمنى الخلاص فعلاً من الأثقال
والأحمال التي ينوء بها ... ويعدها بأن يكف عن الكلام في هذا
الموضوع لا تصريحاً ولا تأميحاً ...

فتتمنى عليه أن لو أخذها بين ذراعيه ... فيأخذها ، ويقبلها ...
يكاد يكتم أنفاسها وأنفاسه ! .. وإذا بالخدام ماريّا تعلن وصول
بوردييه بفرح وشماتة ، كما لو كانت هذه البومة في البيت تريده
أطلالاً ، لتعجب عليه ! ..

أليس مشفقة أشد الإشفاق من وقوع نزاع بين الرجلين ،
بسبب ما عرفه ميشل ، وكان بوردييه خالي الذهن منه بتاتا بالطبع ..
وقد عاد ليتحدث إلى ميشل في تجارته ، وفي دعم داره بسلفة

٦٠٠.٠٠٠ فرنك نظير ربح ستة في المائة ، وبشرط أن تأخذ الدار
سبعين في المائة مما يلزمها من النسيج من مصنعه . . مع حفظ حقه
في الإشراف على الحسابات ، من حين إلى حين . . وتشاور ميشل
وأليس في ذلك ، فسامت هي لزوجها أن يفعل ما بداله . . وتم
الاتفاق أو كاد . . حتى صدرت من بوردييه كلمة « التعاون » الوثيق
بين صناعة النسيج وخياطة الثياب . . وسمع ميشل صاحبه يثنى على
أليس وقدرتها الفائقة وصدق حكمها على الأزياء . . ويسألها هل
يسمح لها وقتها في الساعة الخامسة من مساء الجمعة بأن يأتي إلى المحل
ويتحدث إليها فيما تطلبه للموسم الجديد ؟ . .

فتنتاب ميشل نوبة الغيرة الجارفة . . فيصيح :

— كيف لا ؟ . . لك أنت كل الوقت الذي ترغبه
وتريده ! . . إنها ستكرس آخر نهارها للقائك ، لتكون كلها لك ! . .
وسيقدم لكما الشاي في الدور الأعلى ! . . التعاون ! . . أجل . . .
التعاون الوثيق . . . بينا أذهب أنا لأتفرج على سباق الخيل !
بوردييه — ماذا ؟ . . ماذا أصابه ؟ . .

أليس (قلقة) — ميشل ! .

ميشل — وستذهب لتجلس إلى مكتبي ، وتضع أنفك القذر

في دفاتري !

أليس (تقف بينهما) — ميشل ! ..

بوردييه — هل جن ؟ ..

ميشل (يخرج من جيبه رسالة بوردييه) — حقق النظر

والمراجعة ! .. حقق النظر ! ..

بوردييه — أهذا كل ما يشرك ؟ ..

ميشل — يشيرني أن أراك هنا ... لقد ضقت برؤيتك

ذرعا ! .. فاخرج ولا تعد ! ..

بوردييه — إنها نوبة جنون ولا شك ...

أليس (بين الرجلين تفرقهما بجسمها) — اذهب أنت ...

اذهب إذن ...

بوردييه — إنني أطيعك أنت يا أليس ...

ميشل — اغرب من وجهي إلى غير رجعة ! ..

ويخرج بوردييه .. وكان ميشل يلهمت من ثورته ، وهياجه

الآليم .. فيمزق «ياقته» وربطة عنقه ، ويسقط إعياء على مقعد ..

فتلومه زوجه على ما فعل .. فيعترف أن ما فعله ليس من الذكاء

والفطنة في شيء ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم .. ويسألها المغفرة ،

في ذل وخشوع ! .. فتتهدد ، وتضع على كتفه يدها الحزينة الرحيمة ..

وجاء المساء ..

إنه إذا أكل أو شرب أو نظر أو تحدث أو لعب الورق ، لم يكن إلا تائه العقل ، مسلوب الرشد .. إنه لم يعد يفكر إلا في خيانتها .. يريد منها زيادة في الإيضاح ودقة في التفصيل .. فتشير عليه بأن يقوم لينام .. وهو يأبى أن يدخل إلى فراشه في الساعة التاسعة ليتقلب على جنبه طول الليل .. فهو لن تأخذه سنة من النوم .. فتسأله رفقا بنفسه ، فيقول :

— بالله تصورى حيرتى وحزنى ! لقد كان لى بيت . لعلك لا تحبين كلمة « بيت » ، فالنساء العصريات ، ونساء الطبقة الراقية ، يرين البيت متحفاً عائلياً عتيقاً ! .. إذن أقول : كانت لى زوجة ، وكنت مجنوناً بها ، وكانت مشغوفة بى حباً .. وكان لى أيضاً صديق هو شاهد وجودى أحدثه عن كل ما بى ، وقد ساعدنى وأيدنى فى عملى ونجحت على يده تجارتى .. فتجىء زوجتى ولا تختار من الدنيا خيانتى غير هذا الصديق ! . رفيق الصبا ، وصديق كل الأيام ، والمعتمد عليه فى عملى ! . تصورى إذن نكبتى فى زوجتى ، وفى صديقى ، وفى تجارتى ! .. وقولى أليس هذا مروعاً ؟ ! من أين لى الشجاعة لمقاومة هذا كله ومحاربتة ؟ .. ثم من يدرينى أنه كان هو وحده ، وليس هناك أحد قبله ولا بعده ؟ ! صه ! فلا تتكلمى ! .. إن المرأة التى تسمح بأن يكتب إليها هذا الكلام .. المرأة التى تستسلم من

نظرة حارة .. هذه المرأة يستوى لديها كل شيء! ..
وساد سكوت .. ولم يكن يسمع إلا فورة النهر، تحت النافذة،
كأنه هو أيضاً غيور ناثر .. يحارب ويحاسب زوجاته .. موجاته! ..
ولعب الكرى بعيني أليس، وهي مضطجعة على مقعد كبير،
من فرط ما أصابها في يومها .. فلما ناداها ميشل ولم ترد الجواب
إلا بأنفاس منتظمة، علامة الاستغراق في النعاس، كتب مذكرة
بحسابات عاجلة، وديون مستحقة، وتعليمات خاصة بتجارتهما،
دون أن يرفع عينيه عنها، عن تلك التي كانت حتى أمس كل
حياته .. ثم انسحب في حيلة وحذر لا مزيد عليهما .. وتحركت
أليس في نومها، ولعلها كانت تحلم، وتخاف من حلمها .. فوقف،
في قلق، بلا حراك، ينتظر ... ثم عاد فسمع تنفسها ينتظم ..
فتأمل مرة أخيرة ذلك الرأس الجميل، وذلك الجسم الطويل
الهاديء، تداعبه بحنان أضواء المصطلى ... فترقرقت العبرات
في عينيه .. فهمس:

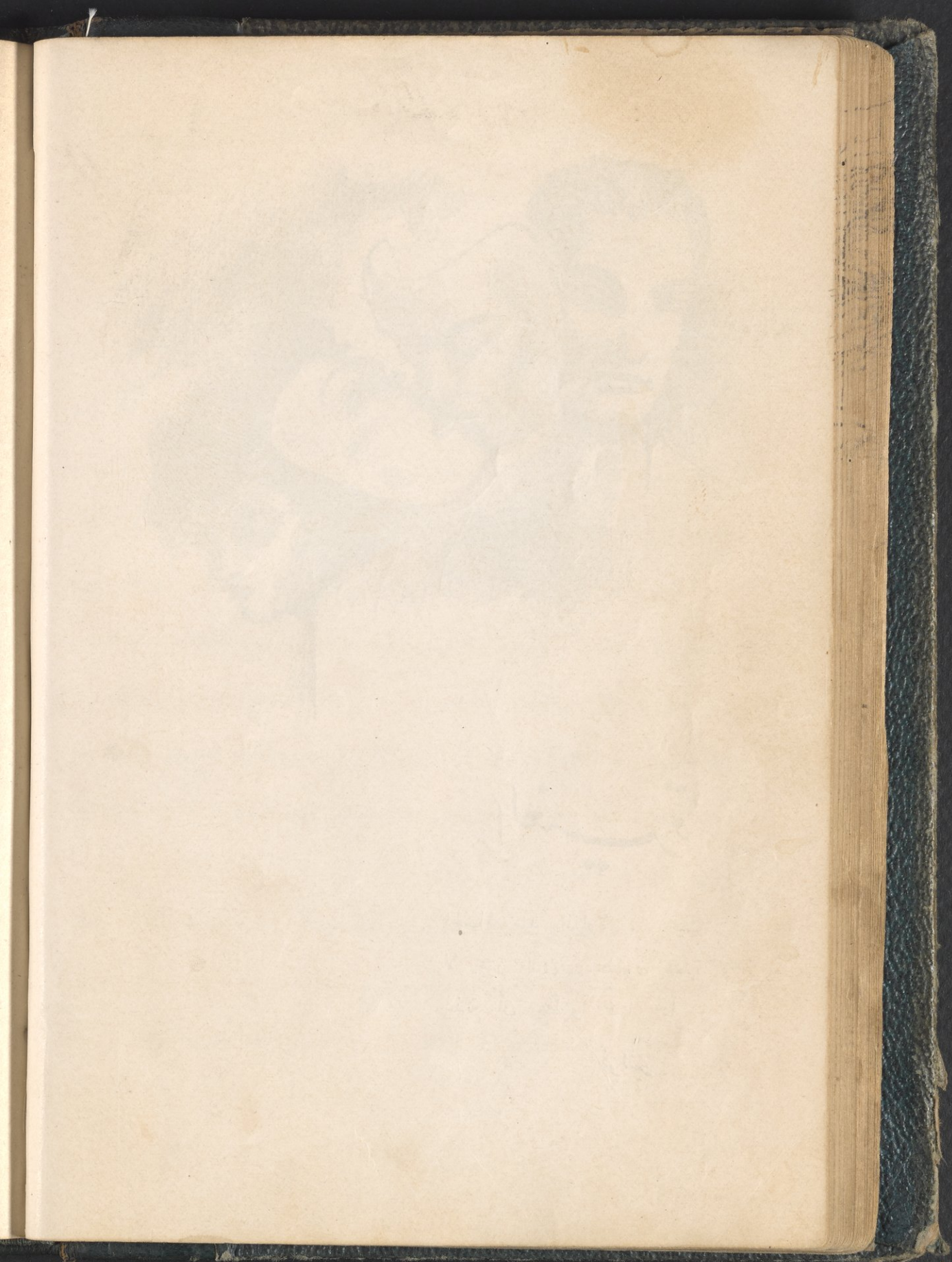
— يا حبيبتي! .. يا حبيبتي المسكينة! عفواً وغفراناً! .. فلم
أعد أستطيع صبراً .. لم أعد أستطيع ...
والتقى بنفسه، من النافذة، في لجة النهر الصاخب ...



الغيرة

الحياة مهد المرارة ، بحيث
لا يجوز للذين يستطيعون جعلها
عذبة أن يقطروا فيها سماً .

فولتير



الغيرة

ما أشد الغيرة في الأوساط الشرقية ! وما أكثر ما تكون ، من جانب الرجل أو المرأة على السواء ، غيرة عمياء ، غيرة لا سبب لها غالباً إلا قصر النظر ، وحدة الطبع ، وكثرة الوسوس . وغالباً تؤدي إلى أوحش العواقب . ونحن نلخص ، فيما يلي ، قصة في هذا الموضوع كان لها أثر بعيد في المسرح الفرنسي . وأجمع النقاد على إطرائها ، وخلدتها الكوميدي فرانسيز « بيت مولير » بقبولها في برنامجها . ومثلتها فعلاً أخيراً . ومؤلفها ممثل كبير كان يقوم بدورها الأول . فهو خبير بأسرار فنه . وسنرى كيف يجمع بين المأساة والملمهة في سطر واحد . وهذا هو الفن .

صالون في بيت « بلوندل » ، يدخله صاحب الدار ، وهو رجل في الأربعين ، وجيه ، لطيف . ولكنه الآن مضطرب واجف ، ينظر إلى ساعته فيراها الثامنة . إنه في حيرة يرثي لها . لا يجد عذراً يعتذر به لامراته عن التأخير . فهو جزع من أن تدخل عليه لساعتها

فتسأله أين كان فلا يحير جواباً . ويأسف لعدم مرانه على الكذب .
إن موعد عودته السابعة . فأين يدعى أنه قضى تلك الساعة ؟ وليست
امراته بالغبية الساذجة التي تقبل العذر إطلاقاً . فلا بد من عذر فيه
ذكاء . فإذا اعتذر بأنه قابل صديقاً فهو واثق من أن هذا الصديق
لا يلبث أن يقبل لزيارتهم فيفتضح ! .

الذنب ذنبه ! لماذا تبع تلك المرأة التي حدجته بطرفها ؟ لماذا
تبعها إلى بيتها ؟ . لقد زل . وهذه زلته الأولى منذ تزوج . إنه زعمها
طاهرة ، فأراد أن يدنسها مدفوعاً بأنانية الرجل . وحسبها بريئة ،
فأراد لها الإثم ، مهتناً النفس بحظوته لديها وفوزه عليها ! . . فإذا
بها آخر الأمر تطلب مالا ! فليس في الأمر إذن فتح مبين ، وإنما
خيبة و « وكسة » ! . .

ثم وفق أخيراً إلى عذر . سيتمنع عليها ، ويدل بسبب تأخير
حتى تلح وتمعن في الإلحاح . فيقول : « كلا . . لن تعامى من أين
جئت . . ولن أقول لك . . بل أتوسل إليك ألا تسألي ! . . »
فهذا هو العذر الذكي ! فهي لا تلبث أن تظن أن في الأمر هدية منه
إليها . . . وبذلك يستعيد هدوءه . وغداً يذهب لشراء شيء لها
ويحمله في المساء . . فإذا سألته : لماذا لزم الانتظار أربعاً وعشرين
ساعة ، قال إن ذلك بسبب تطريز الاسم بالحرير على الهدية . .

لقد نجنا ! بعد ما غرق في شبر ماء ! .

ويدخل الخادم حاملا جراند المساء ، فيسأله عن سيدته ، وفي
أى غرفة هي ، فيعلم أنها لم تعد بعد ! . . . فلا يكاد يصدق أذنيه .
كيف ؟ ! أتقوت الساعة الثامنة وهي غائبة عن دارها ؟ فيسأل : متى
خرجت ؟ فيعلم أنها خرجت في الرابعة بعد الظهر . فيسأل حماته
عن ابنتها . فتقول إنها ذهبت لتناول الشاي عند صديقة لها .
فيقول : هل يتناول الناس الشاي في الساعة الثامنة مساء ؟ فترد
عليه بأن الكلمات في هذا الزمن قد فقدت معانيها ، وأنه وصلتها
منذ أيام دعوة فيها : « نرجوكم التشریف في الساعة السادسة لتناول
شاي الساعة الخامسة » . . . !

أمها ليست قلقة ، ولكنه قلق . هي تزعم أنه خشي عليها وقوع
حادث ، غير أن الحادث عنده غير الذي عند أمها . .

ها هي ذى ! . . دخلت أنيقة ، شائقة ، يطوّق عنقها ثعلب
أزرق من الفراء الجميل . فيأخذ في سؤاها عن سر غيابها ويحاسبها
حساب الملّكين ! إنه معذور . لقد تأخر ، وكان قد أثم . فزعمها ،
وقد تأخرت ، لا بد أن تكون قد أثمت ! . وراح يعد عليها الساعات
والدقائق . ماذا فعلت من الرابعة ؟ لقد كانت عند صديقتها « چاكان » .
ثم ماذا ؟ ! ثم اشترت أشياء للبيت . . ثم ماذا ؟ . .

هي - ثم ذهبت إلى ...

هو - ولكن لماذا يحمرُّ وجهك ؟

- إنه لا يحمر خجلاً من شيء ؟ إنك تضايقني بهذا كله ! ..

فما هذا الاستجواب ؟ ! وما معنى هذا التحقيق ؟ !

- أيمكن أن تستغرق زيارتك لمحال الأزياء ، لاختيار قماش ،

ساعة كاملة ؟ ..

- نحو ذلك ! .. لأن المرأة لا تتعجل قط وهي تنظر إلى

قماش .. ففي كل لون يعرض عليها تفصل لجسمها في الخيال ثوباً ..

ومع ذلك لن أقول لك قبل أربع وعشرين ساعة ! ..

- أيمكن ذلك بسبب تطرير الاسم بالحرير .. ؟ ..

- أجل ! .. ولكن كيف عرفت ؟ !

- آه ! ... دعي عنك هذه المواراة ! ... لست أبله حتى

تسخرى مني إلى هذا الحد ! أهذه هديتك ؟ ما كنت أصدق

هذا منك !

- كيف تزعمني كاذبة خادعة ؟ ! ولماذا اخترع هذا أو

أدعيه ؟ ... (وبكت)

- آه من الدموع ! ... ليس لك حتى مجرد القوة على

الكذب حتى النهاية ! إذن فاعترفي ! اعترفي فهذا أبسط وأولى !

— أعترف ! .. بماذا أعترف ؟ علام تريدني أن أعترف ؟
وإنه ليقسو ويزداد عنفاً ، فيأخذها بيديه من كتفها ، ويضغط
عليها ! ويسألها عما ارتكبته في يومها ، وعن الحقيقة ! بينما هو يحرق في
عينها بنظر حديد ، ثم يشعر إزاء تهالكها وضعفها أنه أسرف ، وأنه
اندفع في الاتهام دون حساب ، فيقول لها إنه ليس قاضياً يحقق ،
وإنما زوج يريد أن يطمئن قلبه .. زوج يحب .. زوج غيور .. وإنه
يعرف خلقها ، ولا يعتقد في وزرها ، فهل أتت أمراً إذاً ؟ ! هل كانت
لحظة غير بصيرة أو حذور ؟ ! هل كانت « غندورة » مع بعض
الناس ؟ .. هل خدعت وانسأقت إلى موعد ما ؟ ! ..

— موعد مع من ؟ ! ماذا تقول ؟ إنك تتهمني إذن بخيانتك !
يا ويلتاه ! .. إليك عني ! .. لقد انتهى ما بيننا .. لا تمس لي بعد
اليوم يداً ! إني أشعر بالخجل لك .. لهذا الفرض الساقط . لقد
فهمت وما كنت أجرو على الفهم .. فيا للعار ! .. أقسم لك أنك
قد كسرت نفسي . لقد سببتني مسبة لن أنساها أبداً . لقد اتهمتي
بأنني كذبت عليك ، وأنني خنت عهدك .. معاذ الله ! ألم يكفك
منى أني حملت إليك شبابي ، وخفري وحيائي ، وحي الساهر
عليك ؟ .. فأخذت هذا كله مني ، فهل كنت أستطيع المزيد ؟ ..
وهل كنت أجد سبيلاً إلى أن أحبك فوق حي ؟ .. وهذا بعد ثمانى

سنوات في وفاء مقيم ، وحب عظيم ، وإنكار للذات من حيث
لا تقدر ، وربما لا تحتسب .. لأنك لم تعرف أبداً كيف كان ذوق
ومزاجي ، وقد انتهيت بأن اقتبست ذوقك ومزاجك ..

— مفهوم! .. ولكن .. أين هي المرأة التي لا تقول إنها
ضحت كل شيء من أجل زوجها؟! ومهما يحمل إليها من الحنان والمال ،
فإنها ترى قسمتها عاثرة ، وحظها ضئيلاً ، وتتطلع إلى رجل آخر
تعتقد أنه كان سيحمل إليها من ذلك أضعافاً . وعند أول حجة عارضة
تندم ، وتأسف على الزمن الذي قضته معه ، لأنها لا تعتبر مطلقاً أن
سني شباب الرجل ثمينة ، بقدر ما هي سنوات شباب المرأة ! .

— أول حجة عارضة! .. أبعد ثمانين سنين في حياة مشتركة
تجرؤ على اتهامي بأني خنتك؟! وتسمى هذا « أول حجة عارضة »! .
وعلام يقوم هذا الاتهام؟ على لا شيء؟! ..

— إنني لم أتهم!

— إنك ارتبت في!

— إنني سألتك . أو لم يعد للرجل الآن الحق في سؤال زوجته

عند ما تصل إلى البيت في الساعة الثامنة والرابع مساء؟! .

— لقد أجبتك . ورددت على كل أسئلتك .. ولكنك

لم تصدقني .

— وى ! إنك لتبرير تأخرك

— لم أحاول تبريره . . . ولو أننى ارتكبت إثماً لوجدت عذراً ،
ولا اخترعت أسباباً وأسباباً .

— ليس هذا من السهولة بمكان !

— وما يدريك ؟ . . . إني إذ رأيتك متوتر الأعصاب معذبا لم
أشأ أن أزيدك هياجاً ، فضعفت ، وأجبتك فى أناة على كل أسئلتك ،
ولم أكن أعرف سر هياجك . . إذ خطر لى أنك قد تكون تضايقت
من عمل فى مكتبك . . إنك أخطأت بالشك فىّ ، وستدرك يوماً عاز
هذا الزعم الخسيس .

— ما أسهل هذا ! فأنت بدلاً من إقناعى . . .

— لن أحاول إقناعك . . ولن أقيم على براءتى دليلاً ، ولن
أدفع اتهاماً مزق كرامتى ، ولن أرد بعد على سؤال من أسئلتك .
وإذا لم تكن قد فهمت حتى الغد ، إذا بقيت على الشك فىّ ، فما عليك
إلا أن تقول ذلك لأذهب فى سبيلى .

— إلى أين تذهبين ؟

— حيثما يطيب لى ! . . أتدرك أنت ما قد فعلت ؟ . . وهل

وزنت ما قلت ؟

— على أى حال ، فالذى لا أدركه هو غضبك . فلست أفهم
لماذا تغضبين إلى هذا الحد ؟
— آه ! أفلا تفهم لماذا أغضب ؟ ! فكر إذن قليلا ! وألق
نظرة على الماضى ، ماضى ، فتفهم ...
— عاتقيني !
— كلا .
— بلى !
— ليس بى ميل .
— قبليني وكفى . . إني أحب منك قولك أن ليس بك ميل
— ولماذا ؟
— لأنه دليل على أنك لا تفعلين ذلك إلا عن ميل وشعور .

لقد دخل الشك فى قلبه . إنه يقطر سما ، سُمّا زعافا . إنه قبلها ،
وهو ينظر إليها نظر المرتاب ، نظر الرجل الذى يستحق الشفقة
والرثاء . فخطر لها حتما أنه لا يفعل هذا كله تلذذا به . . فتقبله بدورها
وتسأله عما كان به ، وهل السبب فيه أنه جاءه رفض طلب «الوسام»
الذى ينتظره من الحكومة ؟ . . فيقول إن السبب هو تأخرها . .
فتعجب عليه أنه اقترض سوءا من تأخرها بدلا من أن يخشى عليها

وقوع حادث .. فهو أنا في فكر في نفسه أثناء غيابها أكثر مما
فكر فيها ! فينكر أنه لم يقلق عليها أخيراً ! .. فنقول :

— بيد أن فكرتك الأولى كانت سيئة !

— إن من يتأخر عادة يرتكب بعض الوزر !

— آه ! ؟ . في أي ساعة عدت إذن ؟

— (يكذب ويتقن الكذب) أنا ؟ لقد عدت الساعة

السابعة ، صدقيني !

— إني أصدقك .

— آه ! ولماذا تصدقيني ؟

— لأنني أرى في عينيك حقاً .. أجل .. لا بد أنك ترى

في عيني أنني لم أرتكب أمراً إذاً ..

ها هي ذي شكوكه تتجدد . لقد كذب عليها فصدقته .. فمن

يدريه أنها لا تكذب عليه ! فيأخذ بيديها يربّت عليهما ، ولكن

ليتحسس ثوبها من ظهرها ، وهل حل مشبكها ؟ أو حلت أزراره ؟ !

ويتطور الحديث بعد بعض الصفاء . فتشير عليه ما دام مهتماً

بالوسام أن يدعو صديقه « لزيان Lézignan » إلى الغداء لما له من

مكانة وقرابة في مجلس الوزراء .

— ومن ذكر لك هذه القرابة ؟

— هو نفسه .

— اليوم ؟

— كلا ! فلم أره اليوم ، إنه قال لى ذلك على العشاء عندنا
أول من أمس .

— إننى لم أسمع يذكرك ذلك ، ولم ترويه لى أنت تَوًّا .

— ما كنت أستطيع أن أحدثك فى هذا الشأن على المائدة
أمام عشر أنفس . . ثم بعد ذلك نسيت ، وأنت وشأنك .

— أفترضين على أن يتغدى هنا ؟

— ليس لى أن أصر . فقد أشرت عليك بما رأيت وما سمعت .

فافعل ما بدا لك !

ويخلو بنفسه ، بينما هى تشرف على إعداد المائدة ، قهواجه
الوساوس : لزيان ! . . ولم لا ؟ ! . . إنه روائى . . إنه صحافى . . إنه
عذب الحديث . . مزهو بنفسه . . صديق حميم . . غريب ! كيف
لم يخطر بباله ! ؟

وهكذا جدد ألمه وهياجه ، وراحت الغيرة تلتهمه وتتغذى ،
كحيوان مفترس ، بلحمه ودمه . . فيأخذ حقيبة يدامرأته « مارت » ،
ويفتحها ويبحث فيها . ويخرج أصبع الأحمر وعلبة البودرة ومنديلاً ،
كما لو كان لصاً ، ثم يعيدها إلى مكانها . وينظر فى دقتر التليفون عن

خيَّاطة زوجته ، ويسأل ، فلا يجد إلا الخادم ، فيسألها عن موعد وصول زوجته وعن ساعة انصرافها . ولا يتحرَّج من التوسل للخادم التي لا تتذكر تماماً بالدقة التي ينشدها . إنه يعد الدقائق ، ويحاسب عليها خادماً في بيت خياطة تدخله في اليوم مائة سيده ، ولا يقدر سخافته . يفعل ! لأنه مريض .. لأنه شقي .

نحن عند الأديب لزيان ، وهو شاب جميل وجيه ، وإن كان يعد نفسه خيراً مما هو . يعلو على سكرتيرته قصة تكتبها على الآلة الكاتبة . ويدخل بلوندل . ويخلو بلزيان . لا يكاد يجد موضوعاً للكلام . لأنه مشغول بالخيانة المزعومة . فيدعوه إلى الخروج للتنزه قليلاً . فيستغرب هذا الاقتراح ، وينظر إلى أوراقه .. فيقول بلوندل إنه يشغل عليه . لعله ينتظر أحداً . فيجيبه لزيان بأنه اليوم لا ينتظر . ولكن لو أنه جاء أمس لما سمح له بالدخول ، لأنها متزوجة ... — من تكون ؟ ..

— ممثلة فاتنة ! ..

— كنت أحسبك خاطباً ! ..

— أنا ؟ هذه حماقة أعيد النفس منها !

— لماذا ترى الزواج حماقة ؟ ولماذا لا تتزوج ؟

— لأنني أحب نساء غيري ! فلا أريد أن أتزوج حتى لا يسعد

الآخرون على حسابي ! فيما بعد ، عندما أبلغ السن التي تحتل
فيها الخديعة فأضحى هذه التضحية وأسدد للمجتمع ديوني .

— الحق أنني لا أفهم هذا .. فأتصورت قط مغازلة زوجة صديق !.

— مغازلة ! .. كلمة غامضة . لست أعارضك . ولكن لكل

امرى رأيه . ففي بعض الأحيان يوجد الإنسان في مآزق جد محرجة .

فإذا عرضت عليك امرأة متزوجة بأحد أصدقائك فإذا تفعل ! ..

إما أن تجازف بسمعتك أو بسمعة الزوج ! .. فإذا لم تكن المرأة

جميلة أو جذابة فقد تستنجد عندئذ بالشهامة وتظهر بمظهر الرجل

الذي يأبى خيانة صديقه .. أما إذا كانت المرأة فاتنة ، أى تعجبك !

فما أصعب التخلص إذن ! .. زد على هذا أن المرأة في هذه الحالة

لا تقول إنها اختارتك لأنك صديق زوجها .. بل لأنك تعجبها ،

وهذا مما يرضى ويسر ! .. فليضع الزوج نفسه ولو قليلاً مكان

العاشق .. ما دام العاشق يضع نفسه مكان الزوج ! ..

— (يضحك ضحكة صفراء) أحسنت ! أحسنت !

— من المحتمل أنني إذا تزوجت يوماً تغيرت أفكاري تماماً !

— آه ، هذا ما أعدك به ! ولكن إذا جاءك صديق متزوج

وقال لك يوماً : « إنني ألاحظ أنك تنظر إلى امرأتى نظرة معنوية .. »

فماذا تقول ؟

— أحد أمرين : إما أن يكون هذا صحيحاً ، فأتخذ الخيطة . وإما

أن يكون غير صحيح ، فيحملني ذلك على تحقيقه !

— طبعاً ! .. ولكن ، على فكرة ، لماذا لا تحلق شاربك !

— ما هذه الأفكار ؟

— ليس هذا رأيي ، وإنما هو رأي مثال معروف ،

وكنا نتكلم عن أهل الأدب ، فقال إنك لو حلقت شاربك

لصار رأسك شبيهاً برأس « بودلير » . . وإني أشهد أن هذا

حق . . أخف شاربك بيدك وانظر في مرآة ! .. إنك من دونه

أفضل مائة مرة ! ..

— كان هذا يغريني ، ولكنني ترددت ! ..

— ولم التردد ؟ .. إذا لم يعجبك الحال ، فإنه ينبت ثانية في

خلال بضعة أيام . .

— أفلا يكون لي بدون شارب منظر خادم ؟ ! .. أخشى . .

ولكني سأفعل . .

ويعلن الخادم مجيء مدام بلوندل ! .. فيدهش زوجها

ويصعق ! .. ويدخل لزيان ليحلق شاربها ليعود فيفاجئها لتحكم

على شكله . . ويخلو الزوج بزوجه ، ويسألها بعجلة ورجفة عن سر

حضورها إلى هذا البيت ! .. وهي تجيب بأنها ذهبت إلى مكتبه ،

فأخبروها بأنه هنا ، فلاحقت به . . فيتهمها بأنها إنما جاءت لموعد مع
لزيان . . فتصيح :

— أين هو؟ . . أريد أن أراه ليشهد أمامك . .

— كفى فضيحة! . .

— كلا ، فقد ضقت ذرعاً! . . ولم أعد أجروء على أن أقول

شيئاً ، أو أفعل شيئاً ، ولم أعد أجسر على النطق باسم . . .

— ولماذا أردت اللحاق بي في مكتبي ، ثم هنا؟ . .

— لأنني خاطبت صديقتي « جوليت مارتنز » في أمر الوسام

الذي تنشده ، فضربت موعداً لمقابلة أبيها الجنرال في فندق

« ريتز » اليوم . . الآن ، نحو الخامسة . . ثم هل خاطبت في ذلك

لزيان؟ . .

— (يزداد هياجاً) أريد أن أسأل شيئاً! . .

— تعقل يا صديقي لحظة ، وقل لي أحقاً أنك تزعم هذا الرجل

لي عاشقاً؟ . .

— لا أدري ، وعلى أي حال لا أريد منه شيئاً ، ولا أبغى

وساماً! . . وأقسم لك الآن على ذلك . . إنني رجل لم يعد يشعر بغير

الغيرة . . إني غيور ، فإذا لم تكوني غيوراً ، فلن تعرفي ما هي الغيرة!

انظري! . . إن الحمى تشعل جسدي . .

— سألتك بالله أن تتعقل ! .. أظن أنني لم أعد أحبك ،
وأننى خنت عهدك ؟ .. ألا لو أننى أحبيت غيرك لقلت لك ذلك
وطلبت الطلاق ..

— ولم ذلك ؟ .. على هذا الأساس لا يبقى فى الدنيا ذوقرين !
ثم إن المرأة ليست إلا طرفاً واحداً فى الدعوى .. فهناك العشيق !
وما يرضى أضراب أولئك الرجال هو ألا يجدوا المرأة عبئاً يثقل
كاهلهم ، وقد اعترف لى بذلك لزيان لساعته .. إنك لا تعرفين
أى رجل شنيع هو ! .. إنه لا يحمل للمرأة الطاهرة أى احترام ..
ولا بد للمرأة التى تستسلم لمثل هؤلاء المناحيس من أن تكون
ساذجة أوفاجرة ! ..

— ولكن هذا كله لا ينهض دليلاً على .. رباه ، لشد
ما أبغى أن أعطيك برهاناً ؟ .. ولكن كيف السبيل ؟ .. كيف
أبرهن لك على أننى ما نظرت قط إلى هذا الرجل ، ولم ينظر إلى ..
— تستطيع المرأة دائماً أن تجد برهاناً إذا كانت تحب
زوجها .. تجد شيئاً يقنعه .. أى شئ ؟ .. ولو كان تافها ! ..
— إني أبحث ! .. أقول شيئاً تافهاً ؟ ! .. إذن فاعلم أننى يخيّل
إلى أنه يستحيل على مطلقاً أن أقبل رجلاً له شارب ! ..
أرأيت إلى هذه البراعة فى الفن المسرحى ؟ ! أرأيت المؤلف

كيف يمزج العبرات بالبسمات ؟ ! أرايت كيف تحول أتفه
الظنون وأبسط الشكوك إلى « حقائق » مريرة وسموم قاتلة ؟ !
أرايت أن هذا كله ليس وليد الخيال ؟ ! ولكنه متخذ من
صميم حياتنا التي نعيش فيها كل يوم ، ونلق منها الويلات ،
حتى يحىء الكاتب فيصورها لنا ، فتتجسم لنا بشاعة أوهامنا ،
وشناعة أخطائنا ؟ !

إن الزوج أخطأ ، بأنه زلَّ أولاً ، ثم ارتاب ثانياً . ولكنها
هى كذلك أخطأت بأن قدمت له أسلحة جديدة للغيرة ،
للتهيج ، للألم ...

لماذا تلاحقه من مكتبه إلى بيت الرجل الذى يشتبه فيه ؟
لماذا لا تسكن إلى دارها رزينة ، كريمة ، عاقلة ، حتى يسترد
البيت سلامه المفقود ؟

لقد زلت . . وزعمت أن زلتها بسبب ضغط زوجها ،
وإلحاحه فى اتهام رجل بعينه . . وهنا لا ينطبق قانون : « العين
بالعين ، والسن بالسن » . لأن العرض هو عرضها قبل أن يكون
عرضه . . وهو شرفها قبما ، وبعدها ، يكون شرفه . . فإذا
حرصت المرأة على سمعتها فذلك أخلق بها من أجل نفسها ، قبل
أهلها وزوجها وأولادها . .

ها هو ذا بلوندل ممدد على خشب التعذيب .. تلك هي العلة ..
إنه يستعين بمخبر سرى يتقصى آثار زوجته ويتبع خطاها ،
فيزيده شجنا على شجن ، ووهنا على وهن ..
لكن هذا المخبر الخاص يروى له حركات زوجته وسكناتها ،
ويصف له يوم ذهبت إلى بيت لزنيان ، وخرجت معه ، ويؤكد
المخبر أن « الرجل » الذى كان معها — وكان طبعاً بلوندل زوجها —
قد عانقها فى السيارة ، طول الطريق ! .. ويتفنن فى وصف هذه
المغامرة الغرامية ! فلما يسأله بلوندل عن شكل ذلك العشيق ، وهل
يشبهه ؟ يقول : كلا ! مطلقاً ! إن الآخر رجل فظ ، غليظ ،
سخيف ! ..

بعد هذه الأشواط الطويلة فى شوارع باريس التى لا عداد لها ،
وبعد هذا التخبط فى الوساوس والهواجس ، استردت نفسه هداها
أو كادت .. فى تلك الأثناء كانت « مارت » مثال الصفاء والبهاء .
كانت فى عزلة روحية أشبه بالزهد المشوب بالحنان والإشفاق على
ذلك الرجل الذى يغار لأنه يحب .. ولقد فكرت آونة فى الانفصال ،
لكن أمها نهرتها :

— ما هذا القول يا بنيتى !؟ فلا يجوز إلقاء السلاح والهرب
من وجه الخطر . إن هذا لا يليق بامرأة فى مثل مكاتك ،

وعلى نحو تربيتك . واجبك يقضى بإعادة السلام إلى بيتك .

— إن حياتي يا أماء في هذين اليومين صارت كالجحيم !

— إن الذي يغار يتعذب . . .

— وهل الذنب ذنبى ؟ !

— وهل يكون أيضا ذنبك إذا مرض زوجك ، ومع ذلك

فأنت تعالجه وتسهرين عليه ؟ ! . . أبوح لك الآن بسر لا يعرفه

سواي ، وما كنت لأبوح به لولا هذا الظرف العسير ، فقد كنت

غيوراً على أهلك . . ولشد ما عانيت في العثور على أسباب الغيرة

وأدلة الخيانة ، فإني لما تبينت أن أباك لم يعد يذكر لي الحقيقة ، لما

شككت في أنه يخونني ، أردت الحصول على البرهان الدامغ . .

وكنيت مع ذلك واثقة من أن حصولي عليه لن يغير من حبي له ، ومن

حرصى عليك ، وكنيت طفلة ، فأخذت في البحث والتنقيب . وياله

من بحث منكر محزن ! . . راقبته ، واضطهدته . . تبعته في كل مكان . .

فتشت ليلاً في جيو به . . فتحت أدراج مكتبه . . اغتصبت بريده . .

ثم حصلت ، ذات صباح ، على البرهان المزعج الشنيع الذي جدت

حتى الضنى في البحث عنه !

— فماذا فعلت إذن ؟

— كففت عن البحث ! ولم أذكر له من ذلك شيئاً . . .

وهذه أول مرة أبوح به . لقد رد إلى حبي ، فأردت المحافظة على احترامه إياي ..

— ولكن زوجي لا يفعل مثلك !

— يا حبيبتي ! إن الرجال لا يستطيعون أن ينسجوا على منوالنا .. فاحذري يا بنيتي أن تحتقري زوجك لغيرته ... افعل من أجله ما لم يفعله أحد من أجلى .. ارثي له ، وقولي لنفسك إن موقفه مروع ، لأنه لا يكاد يستطيع أن يغفر لك ... وسيكون في وسعك أن تثبتى له ، على الأيام ، أن سوء ظنه لا يقوم إلا على رمال خادعة ..

ويدخل الزوج . لقد استروح قلبه بعض الاطمئنان .. فيقول :

— إن لزيان يعتذر عن الحضور إلى الغداء ..

فتبدي ارتياحها . فيسألها عن سبب الارتياح . فتجيب :

— زعمت أن في مقدوره بذل وساطة لتحصل على ذلك الوسام

الملعون ، فقصدته أمس ، فنشأت عن ذلك شكوك جديدة أزعمتني عليك وعلى نفسي ..

— كفى كفى ! ولندع هذا الحديث كله بخيره وشره . إن

الصفاء يعود .. والسحب تنقشع من سماء هذا البيت .. ولست

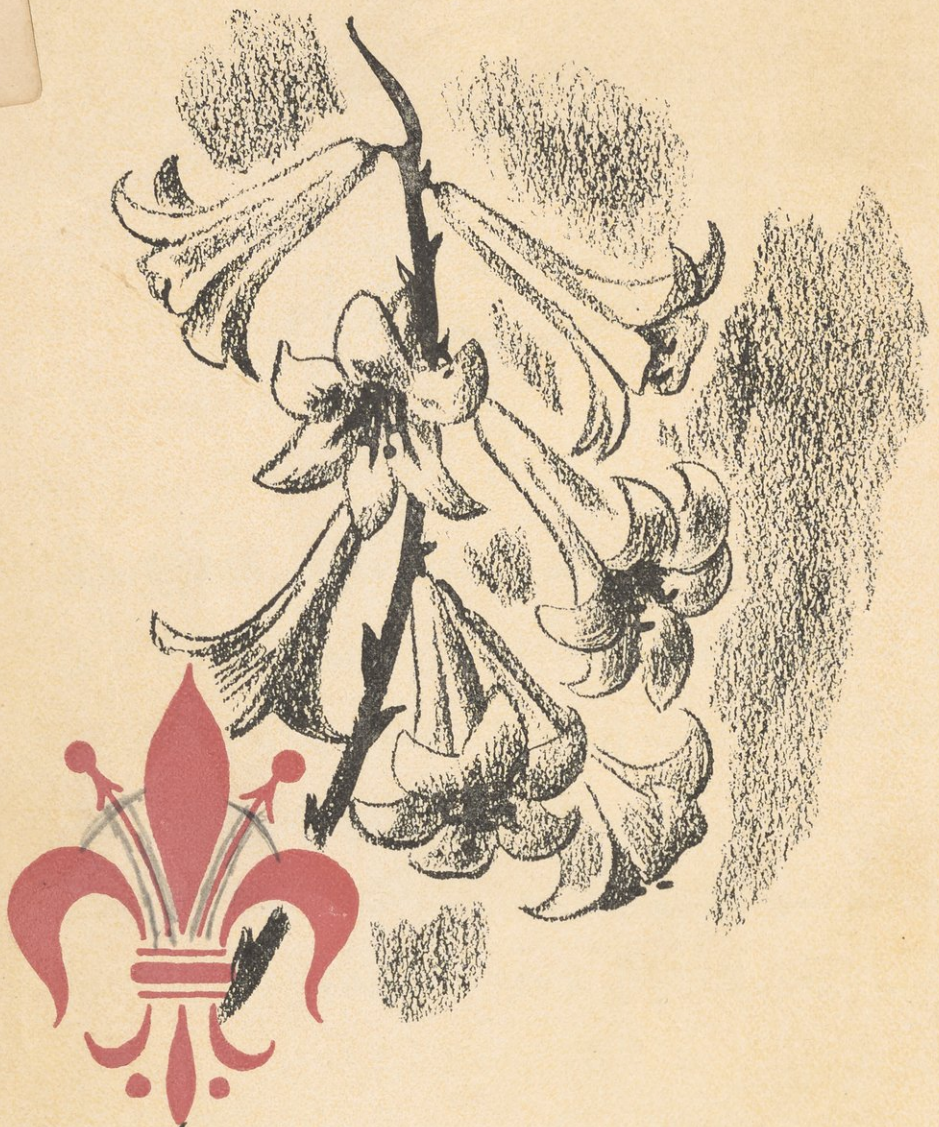
أدرى أى شيء في مظهرك يعيد إلى ثقتي وطمأنيتي .. أقول « لست

أدرى « ، ولعللى أدرى فعلا ، وأقصد بذلك سكون حديثك فى مخاطبتى ،
ودفاعك الحار عن اتهاماتى ..

— ذلك أننى كدت أجازف بخيانتك ...

— كدت ؟ ! أواه من كيدكن ! إن كيدكن عظيم ! لقد
تبددت شكوكى بقولك إنك كنت على وشك الخيانة ... فهذه هى
الكلمة التى أتمناها . فأنت قد وقفت على شفا جرف هار من الإثم ! ثم
نجوت .. إن جو الشك والخيانة هو الذى يكون الشكوك والهموم ،
ويسبب الخيانة ..

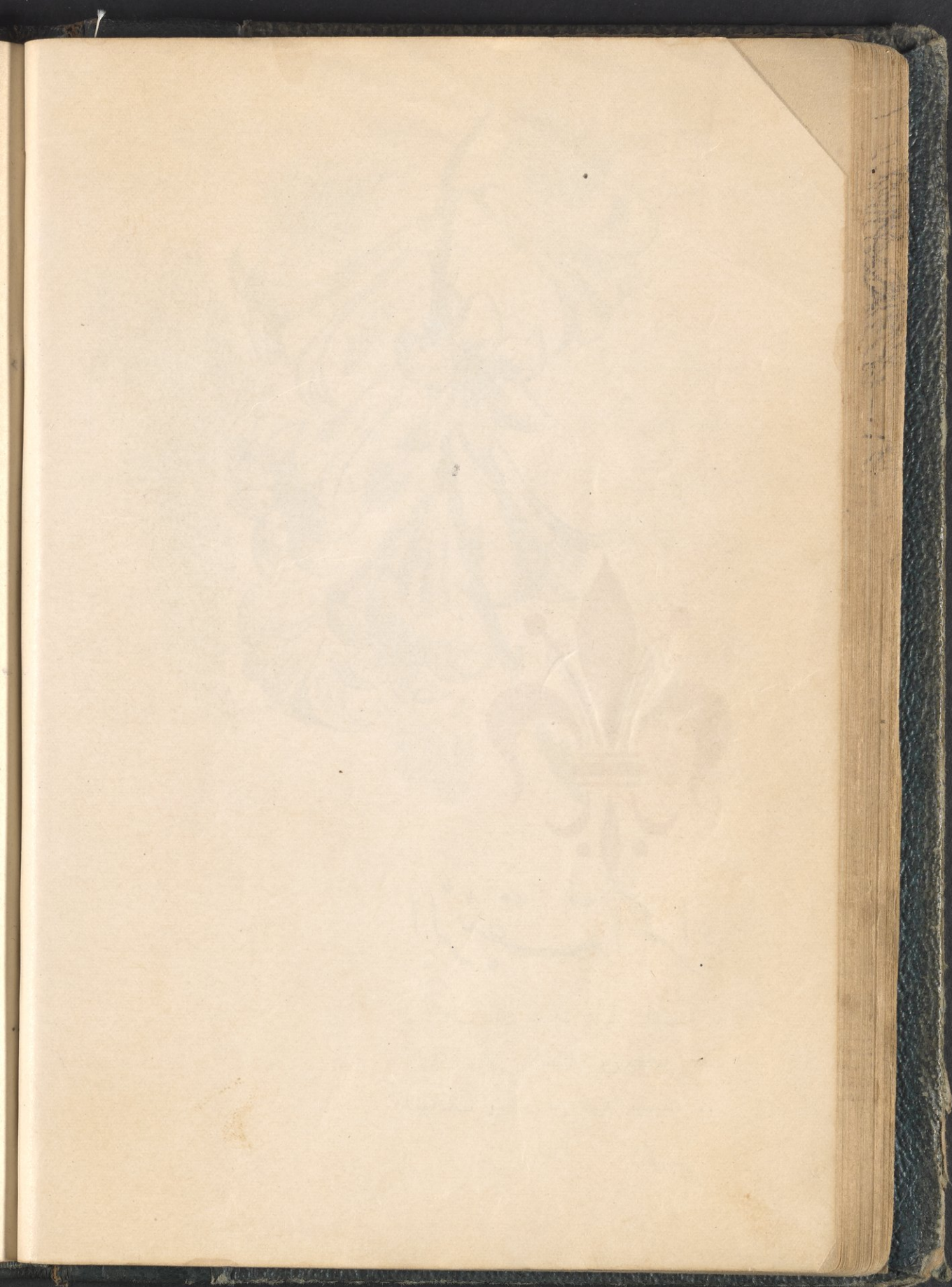
ويدق التليفون . ويعلن إليه صديق فى الوزارة نبأ الإنعام عليه
بالوسام . ولكنه لم يعد ينتظر وساما أو يتمنى إنعاما .. فقد وجد
مرة أخرى الصفاء والهناء ، إذ وجد الزوجة .. المخلصة .. الحبيبة ..
نعمة الحياة ! ...



الزنبقة الحمراء

لو كانت تلك المرأة بازياً عالقة به
ألياف قلبي لأطلقته وتركته تحت
العواصف يبحث عن صيد يتصيد به ...

مكسبر



الزينة الحمراء

١

كانت النيران تتلظى في جوف المدفأة، فيسمع لها شهيق وزفير، وكل ما حولها هامد هاجد... ولم يكن، في ذلك الصالون الأنيق، نور غير النار... فالتفتت إلى المرأة البعيدة عنها، وتتبعتم تموج قوامها الرشيق، في الثوب الحريري الأسود المطرز بلالي تضيء وتتلاعب بضوء اللهب، فارتاحت، وألفت نفسها، في غصنها الرطيب، وقد دنت من المرأة، آية لم تنل بعد من سطورها الأفراح والأحزان...

وكان كل ما حولها عريقاً مثلها: جدران الصالون الكبير مزدانة بسجاجيد قديمة شاحبة على الحيطان شحوباً لا حدّ لروعته، والتماثيل الخزفية فوق عمود قصيرة، ومجموعة الصيني السكسوني العتيق، وتحف «سيشر» القيمة... كانت هذه كلها كأنها تتحدث عن التاريخ الغابر...

فوقفت لحظة تتأمل ، على قاعدة محلاة بالبرنز الثمين ، تمثالاً
من المرمر لأميرة متنكرة في زي « ديانا ، إلهة الصيد والقنص » ،
ذات محيياً وسنان ، وصدر بارز انشق عنه دثارها . . . وهناك كان
سقف الصالون مزخرفاً بصورة « الليل » في شكل « مركيزة »
محوطة بصور عدة لإله الحب ، بعضها يسدد السهام ، وبعضها
ينثر الزهور .

وما زالت النار تشكو وتئن في قلب المصطفى . .
فتحوّلت عن المرأة ، إلى النافذة ، ورفعت طرف الستار ،
ونظرت إلى نهر السين ينساب من خلال الأشجار القائمة ، فانعكس
في عينيها الزرقاوين صفاء الماء وصفاء السماء . .

ومر في أثناء ذلك مركب مقلع من إحدى قناطر جسر « لا ما »
حاملاً فقراء المسافرين إلى « جرينل » و « بياנקور » ، فأتبعته
نظرها وهو يتحول مع التيار الكدر ، ثم أرخت الستار ، وعادت
في انتظار مدعوياها إلى مقعدها ، وتناولت ديوان شعر إنجليزي
لصديقتها « فيثيان بل » وظلت تقرأ ، تفكر في الشاعرة ، أكثر مما
تفكر في شعرها . وكانت هذه الشاعرة تعيش في « فييزول » صاحبة
فلورنسا المشهورة ، وها هي ذى أرسلت ديوانها إلى عزيزتها الكونتس
« تريز دي مارتن » مع دعوة إلى تمضية شهر في بيتها بمحلة فييزول ،

وكتبت إليها تقول : « هلمى اشهدى أجمل ما فى الدنيا يزد
بك جمالاً » !

وحفل الصالون ، شيئاً فشيئاً ، بجماعة متخيرة من النساء والرجال ،
بينهم وزراء ، وعلماء ، وكبار قواد ، وكتاب ، وصحفيون ، وأميرات ،
وزوجات أعضاء الأكاديمية . ولما بدأت السهرة تنفض ، والزائرون
ينصرفون ، استأذنت « مدام مارميه » ، وهى امرأة خيرة ترضى
الناس بظهورها مظهر الراضية عنهم ، كثيراً ما تسمع ، وقليل
ما تتكلم . . أرملة عضو بالمجمع العلمى ، وصديقة سمحة لهذا البيت . .
فلم يبق غير « پول فانس » ، الكاتب الروائى المشهور ، فسأل
الكونتس مارتن ربة البيت : « متى تريدن أن أقدم إليك صديق
« دى شارتر ؟ » . وكانت هذه هى المرة الثانية التى سألها فيها فى
هذا . . ولم تكن مولعة برؤية سحن جديدة ، فقالت ، بلا اكتراث :
— صاحبك المثال ؟ . متى شئت . . فقد رأيت تماثيل من صنعه
لا بأس بها . . لكنه قليل الإنتاج . . إنه من الهواة . أليس كذلك ؟
فأجابها :

— إنه رقيق المزاج . وليس فى حاجة لأن يتكسب بفنه .
وهو يدلّل صورته ، ويصنع تماثيله بأناته العاشق لها المغرم بها . لكن
ثقى يا سيدتى من أنه يدرك ويشعر ، وقد عرفته منذ كان طفلاً . .

يحسبه الناس نافراً كئيباً ، والواقع أنه خجول سريع التأثر . والذي
ينقصه ، وسيظل ينقصه ، ليصل إلى أعلى درجات فنه ، هو صفاء العقل ،
وخلو البال ، فهو دائماً قلق متلهف مضطرب ، وبذلك يتلف أبدع
تصوراته وأفن تأثيراته . وعندي أنه يصلح للفلسفة والشعر ، أكثر
مما يصلح لصنع التماثيل والحفر . وسيدهشك خصب ذهنه
وغزارة علمه !

وعندئذ دخل شاب طويل القامة ، نحيف الجسم ، أسمر اللون ،
مفتول الشارب ، وحيا الكونتس مارتن ، فقالت تخاطب الكاتب :
— مسيو فانس ! . لعلك تعرف مسيو لومنييل . . ؟

أجل . . فإنهما التقيا من قبل بدار الكونتس ، ونهض
بول فانس وهو يقول :

— على ذلك ، إذا أذنت لي يا سيدتي ، أتيتك بصديقي
دي شارتر ، فهو شديد الرغبة في التعرف بك ، وأرجو أن يروقك
ولا ينبو عنه ذوقك . .

ولما انصرف بول فانس اقترب لومنييل من الكونتس قائلاً :

— غداً ، في الساعة الثالثة ، في « بيتنا » ، أليس كذلك ؟

— أو لا تزال تهواني ؟

فاستعجلها الرد في وحدتهما ، فأجابته ، وهي تحاوره ، لكيما

تعذبه ، بأن الوقت متأخر ، وأنها لم تعد تتوقع زوّاراً آخرين ، ولم
يبق سوى زوجها الذى قد لا يلبث أن يدخل ! ..

فتوسل إليها ، فلم تمض فى عنادها ، وقالت :
— أتريد ؟ إذن إليك : غداً سأكون حرة سحابة النهار ،
فانتظرني فى الساعة الثالثة بشارع سبوتيني . وبعد ذلك
نخرج للتنزه ..

فشكرها بنظرة ، وعاد فاتخذ مجلسه قبالتها ، فى الجانب الآخر
من المصطلى ، وسألها عن دى شارتر هذا الذى كانت تطلب أن
يُقدّم إليها ، فقالت :

— إنى لم أطلب التعرف به ، بل سئلت أن يُقدّم إلىّ ، وهو مثال .

فشكا من أنها تريد دائماً رؤية وجوه جديدة ، وقال :

— مثال ؟ ! .. إن أولئك المثالين عامة ذوو فظاظة !

— إن ذاك قليل الصناعة ، فهو مثال أو بعض مثال .. ومع

ذلك إذا كنت غير راض عن استقبالى له ، فلن أفعل ...

— سأكون غير راض مطلقاً إذا أخذ الناس أى جزء من

الوقت الذى تختصيننى به .

فوضعت يديها على ذراعى مقعدها ، بهيئة اضطجاع للراحة ،
أخاذاً بالألباب ، ومالت برأسها جانباً ، وأخذت تحدّق فى النار

الخامدة .. وقد سلبت أفكارها ، ولم يبق لها منها أثر ، سواء على محيّاها
الذى عليه مسحة من الكدر ، أو فى جلستها الكليّة المتراخية ..
وكانت راغبة ، أكثر منها فى أى وقت مضى ، فى تلك الغفوة الروحية ..
فسألها: فيم تفكر؟.. فأوشكت أن تتخلص من سحر النار والرماد، وقالت:
— سنذهب غداً إذا شئت إلى أحياء المدينة البعيدة ، إلى
تلك الأحياء الغريبة ، حيث نستطيع رؤية معيشة الفقراء ، فإنى أحب
الشوارع العتيقة التى أخنى عليها الشقاء ..

فوعدها بأن يجيب سؤالها ويتابع ميلها ، وإن لم يخف أنه يراه
منها ذوقاً شاذاً وخيلاً ضالاً . وكان يخشى هذه الجولات الخطرة ،
ويتضايق منها ، إذ يمكن أن يراها أحد ، فقال :

— وقد نجحنا حتى الآن فى تجنب كلام الناس عنا .

فهزت رأسها :

— أئخيل إليك أنه لم يتكلم عنا أحد؟ .. إن الناس يتكلمون ،
سواء أكانوا يعلمون أم لا يعلمون .. وليس كل شيء يُعرف ، ولكن
كل شيء يُقال ! ..

فغادرها ، وكان ذاهباً لتناول طعام العشاء فى النادى ، حيث كان
ينتظره صديق له مارٌّ بباريس .. فأتبعته نظرة عطف هادئة .. ثم
عادت تطالع الرماد .. فاستعرضت أيام طفولتها ، والقصر الذى

اعتادت أن تمضي فيه فصول الصيف الطويلة الحزينة ، والغابات
المونقة ، والحديقة الندية ، والبركة الرائدة ، والتماثيل المرمرية تحت
أشجار الكستنا . . . وذكرت التحول الذي كان يدب في مخيلتها
وجسمها معاً ، فيثير فيها مزيجاً من المخاوف والأهواء . . . ومضت في
حُمها تقول لنفسها : « كانت «ماما» نصب عيني : سيدة موفورة الحظ
من الصلاح ، ضئيلته من السعادة . فأملت نصيباً من العيش يختلف
عن نصيبها . . . فلماذا ؟ لقد كنت أذوق طعم الحياة تفهاً في تلك
البيئة . . . فتنظرت مستقبلاً فيه من مرارة الحياة وحلاوتها . . .
فلماذا ؟ . . . ما الذي كنت أريده وأتوقعه ؟ . . . أفلم يكن لي من كآبة
كل ما حولي نذير كاف ؟ ! . . . »

وُلدت غنية ، محوطة بأبهة من الثروة الطريفة ، وكانت بنت
ذلك الرجل العصامي « مونتسوى » ، الذي لم يكن بادئاً إلا كاتباً في
مصرف باريس ، فأسس بيتين كبيرين من بيوتات المال ، وأدارهما
بما أوتي من حذق ولباقة . . . فنمت فتاتنا وترعرعت في قصر
« چوانثيل » التاريخي الذي اشتراه أبوها ورمّه وفرشه بأخر الأثاث
وزينه بأجمل الصور والتماثيل . وكان ، وهو في سن الخمسين ، يؤدي
لأجمل الممثلات والمغنيات نفقات زينتهن وترفهن ، مستمتعاً بكل

ما تصبو إليه بهيمية طبيعته ، في حين كانت « مدام مونتسوى » ،
زوجه المسكينة ، قابضة في قصر چوانقيل غليلة ذليلة ، تبدو بحرصها
واققتصادها حقيرة فقيرة ..

وهناك ، في ذات مساء ، على سرير صغير من حديد منزو عند
قوائم سرير العرس ، ماتت من الحزن والضعف . لم تحب في الدنيا
غير زوجها ، وصالونها المفروش بالحرير الأحمر المشجر في بيت شارع
مويج ، عند ما كان الزوج ما زال كاتب المصرف ! ..

فلم تكن ثمة الفة أصلاً بين الأم وابنتها ، إذ كانت الأم تشعر
بالطبع أن تریز بعيدة كل البعد عنها في غرائزها ونزعاتها . لأن
البنت كانت موفورة الحجي والنهي ، ذات جنان ثابت وإرادة قوية .
وكان يجري في عروق تريز هذه دم مونتسوى الحار القوی .
وكانت إلى ذلك طيبة القلب لطيفة الطبع . وكان لتريز ما لأبيها من
حرارة النفس ، ونشاط الجسم ، اللذين سببا للأم أمرّ الألم ، وكان
يهون عليها أن تغفرهما لزوجها أكثر مما يهون عليها غفرانها لابنتها ..
بيد أن مونتسوى عرف قدر ابنته ، ورأى نفسه فيها ، فأحبها ،
وكانت له ساعات أنسه وانشراحه كأهل المسرات جميعاً . ومع أنه
كان يقضى معظم أوقاته خارج البيت فقد تعود أن يتناول الغداء
معهما كل يوم تقريباً ، وكان يأخذ تريز للتنزه أحياناً . وكان خبيراً

بالزى والحلى ، فيلاحظ بنظرة منه ما فى زينة ابنته من غلطات سببها ذوق أمها السقيم ، فيصلحه ، ويعلمها ويرشدها . وكان خشن الطبع ، لكنه حلو الفكاهة . فسرّها ونال حبها واجتذبتها ، وكان — حتى معها وفى معاملتها — مدفوعاً بغريزته ، وهى الكلفُ بالغلبة والظفر . وإذا كان يجب أن يربح دائماً فقد ربح حتى ابنته ، فاغتصبها من أمها ، فراحت به معجبة مولعة !

وعادت ، وهى سابحة فى أفق من أخيلتها وأحلامها ، فرأت نفسها تدخل معترك الحياة ، وتيأس من العشور على ما يضارع هذا الأب فى صفاته . ويظل هذا اليأس ملازماً لها ، عند ما أتت لاختيار قرينها ، وربما بعد ذلك أيضاً حين قدر لها أن تختار فى خفية عن الناس خليلاً لها . . .

والحق أنها لم تختَر زوجها أصلاً ، بل كانت لا تكاد تعرفه ، إذ تركت قرانها يتم بوساطة أبيها . ولما كان الرجل أرملاً مثقلاً بأعباء حمة ، ليس دونها عبء واجبه حيال ابنته فى وسط الحياة المضطربة ذات المشاغل الكثيرة ، فقد تصرف فى الأمر بسرعة وإتقان ، كما هو شأنه ، فلم يفكر إلا فى المظاهر الاجتماعية ، وقدر قيمة الثمانين عامّاً من النبيل الملكى التى قدّمها « الكونت مارتن » ، والإرث المجيد الذى صار إلى هذا الكونت من أسرة عريقة . أما

فكرة أن تجد بنته الحب في الزواج فلم تخطر له على بال . بل منى
نفسه بأنها ستجد في الزواج غُنيَتها عن ذلك الهوى بالوجهة التي
كان يدعيها لها . أما سعادة المرأة الفاضلة في المجتمع ، فلم يكن له
رأى صريح بصددِها ، وإن كان واثقاً — ثقة عمياء ! — من أن ابنته
ستبقى من فضليات النساء . . . وتلك مسألة يقين فطرى فيه لم يحاول
قط أن يثيرها . . . ولما تأملت تريز في تلك الثقة الحمقاء ، والثقة
الطبيعية أيضاً ، التي كانت على النقيض من تجارب أبيها الشخصية
وآرائه في النساء ، افترّ ثغرها عن بسمة تهكم حزينة ، وزادها إعجاباً
بأبيها أنه من سعة الصدر بحيث لا يقع منه ما تضيق به ذرعاً ! . .
ومع هذا كله ، لم يزوجها زواجاً دون مستوى الزواج في طبقة
الفرّاغ . . . فقد كان زوجها كأيّ من أفراد تلك الطبقة الخاملة ،
العاطل أفرادها إلا من موروث الألقاب . . . ثم ما لبث أن صار هذا
الزوج محتملاً . . . والآن ، وقد مضت ست سنوات ، لم تكذ تذكر
كيف استردت حرّيتها . . . وكان فوزها سهلاً سريعاً على ذلك الزوج
البارد ، السقيم ، الأناني ، المؤدب . . . على ذلك الرجل المجتهد الطموح
الذى عاد من انهماكه في الأشغال والسياسة نحيل البدن يابس ، أصفر
الوجه شاحبه . . . ولم يكن حبه النساء إلا تظاهراً ومباهاة . فلم يحب
زوجه قط . . . وكان انفصالهما تاماً صريحاً ، ذلك الانفصال الذى

جعل كلاً منهما غريباً عن صاحبه . . وجعلهما راضين عن خلاصهما المتبادل . . وكادت تعده صديقاً ، لو لم تجده ما كراً ، مرئياً ، كثير الدهاء في الحصول على إمضاءها عند حاجته إلى نقود يستخدمها في أعمال قائمة على حب الظهور أكثر مما هي قائمة على الطمع . . وفيما خلا ذلك لم يكن للرجل الذي يؤاكلها ، ويعاشرها ، ويسافر معها ، ويتحدث كل يوم إليها ، أى شأن في حياتها أو نصيب . .

وكانت مستغرقة في أفكارها ، منقبضة في مجلسها ، مسندة خدها إلى يدها ، وهي أمام النار الخامدة ، كأنها راغبة في استقصاء أمر ، أو مستعامة تستنبئ عرافة ساحرة . .

وبينا كانت تعرض تلك السنين الموحشة ، سنى الوحدة ، رأت كيف صارت بعد عامين خلية « رويير لوميل » ، الذى كان قد أصرّ ، بكل ما فى شبابه من حرارة ، وكل ما فى قلبه من بساطة ، على إحرازها . فقالت لنفسها : « لقد منحته نفسى لأنه منحنى قلبه » . وكان ذلك حقاً . وكان كذلك حقاً أن ميلاً طبيعياً قوياً خفياً قد حرّضها ، فأطاعت قوى طبيعتها المبهمة ، ووهبت نفسها بسرعة وسهولة . فزعم أنها وهبتها بطيش ونزق . وكان مخطئاً . فقد تقبلت حبه اعتقاداً منها أنه عاطفة صادقة مستمدة من وحي الإخلاص الذى كانت تنشده دواماً . . وشعرت تبرز بالضعف والهمل أمام فعلتها

التي يتعذر إصلاحها ، كما شعرت بذلك الخزي الذي يلحق بمن يُفاجأ
وهو يعمل شيئاً يجب إخفاؤه . . . وكان ما يتبادلّه الناس أمامها من
همس عن النساء المعشوقات يطن في أذنيها المتهبتين طينناً . . .
لكنها ، في كبرياء وصدق شعور وسلامة ذوق ، كانت حريصة على
إخفاء قيمة النعمة التي أنعمت بها . . . ولو أنها لم تشعر قط بنشوة
الوجد التي حامت بها ، ولكن هل شعر بها أحد يوماً من الأيام ؟ !
وكانت خيلة شاب طيب القلب ، له عند النساء أكبر
حظوة ، وهو معروف في المجتمع ، محبوب من الناس الذين يعدونه
متكبراً أنوفاً . وقد أحبها فأخاص في حبها ، وإذا لم يكن قد جعل
حياتها دأمة اللذة فائقتها ، فقد جعلها محتملة مقبولة ، بل جعلها
مستطابة . . . ولم تكن عواطفهما المتبادلة صادرة عن العقل أو القلب .
وإنما كانت تشعر نحوه بميل محدود عادي . وفي تلك الآونة نفسها
شعرت بارتياح لما عنّ لها من أنها ستلقاه في الغداة بذلك المسكن
الصغير ، مسكن شارع سبونتينى ، حيث تلقاه منذ ثلاث سنين .
فإذا بها تحسّ في رأسها وعطفها هزة عنيفة لم يكن يُنتظر صدورها
من حسناء غيداء مثلها . . . وكان ذلك منها ، وهي منفردة في زاوية
المدفأة ، أمام النار الخامدة ، إذ ناجت نفسها بقولها :

« هو ذا ! . . . إنه ما نظماً إليه نفسى إنما هو الحب » ! . . .

كان النهار قد ولَّى حينما خرجا من شقة شارع سبونتينى الصغيرة ، فاستقلا عربة ، والتصق كل منهما بالآخر ، بينما كانت العربة تشق بهما عباب الظلال التى تقطعها الأنوار المفاجئة من المدينة . ولم يكن يعلق بنفسيهما سوى تأثيرات حلوة ، أخذت الآن تمحى بسرعة الأضواء التى كانت تسطع على بللور المركبة المغطى بالبخار . وكان كل ما فى الخارج يبدو لها مضطرباً هارباً . . .

ونزلاً قرب « بون نيف » ، وجويناير المعتم قد أنعشته البرودة . فجعلت ترير تستنشق بفرح ، من وراء نقابها الشفاف ، نفحات الرياح التى عبرت النهر وجرفت إلى الأرض الصلبة العثيرة الذى هو كالمح حدة طعم ونقاء لون . وقد نشرت أشجار الصفصاف ، على وجه الأفق المكفهر ، نسيج أغصانها الأسود الرقيق الذى صبغه دخان المدينة بالحمرة . وكانت الكواكب قد أخذت تتألق فى قبة السماء . . . فقالت :
— يقولون إنها تبدو كأنما الرياح توشك أن تطفئها . . .

فقال :

— إنها تسطع بيهاء ، فليس فى ذلك ما يؤذن بهطول المطر كما يزعم الفلاحون ، فإن تلالؤ النجوم بشرى بين يديّ جو جميل . . .

وأشار ، بمناسبة الريف ، إلى أسرته الكبيرة البعيدة عنه ..
فاغتازت ، وكانت لا تعرف هذه الأسرة ، ولكنها تضجر وتتكدر
من تحدّثه عنها ، وكاد ينفد صبرها من تعدد زياراته لأسرته التي كان
يرجع عنها — كما خيّل إليها — ذا راحة عفنة وأفكار ضيقة
ومشاعر تجرّحها ! ..

فكفّت عن الإصغاء له ، وتوجّهت ببصرها إلى زاوية شارع
جالون ، حيث كانت امرأة تبيع بطاطساً مقلّياً وهي معزلة وراء لوح
من الزجاج ، وقد أحيط وجهها بالظل وسطع عليه وهج النار ، وكانت
تغمس مغرقتها فيما تقلبه وتخرج مما تعدّه مثل الأهلة الذهبية تملأ بها
قرطاساً من ورق أصفر ، على حين كانت فتاة خمرية اللون ترقبها عن
كشب ، وقد مدت لها يدها الحمراء بقطعة من النقد . فتحرّكت شهية
تريز ، وأصرت على تذوق البطاطس المقلّى .. وذرت عليه البائعة
شيئاً من الملح ، وحملت قرطاسها ، وهو يسير بها ، في الأزقة المظلمة ،
تأكل الأهلة الصفراء ، رافعة تقابها ، حتى ألفيا نفسيهما عند
« نوتردام » .. وكانت أشعة القمر تغمر الكتدرائية العظيمة ...
فقالت تريز إنها تحب أشعة القمر في الريف تغشى قصرها ، كما لو كانت
جارة ريفية ، أو سيدة من سيدات الناحية ! . لكنها لا تريد التعرف
بهذه الأشعة القمرية الباريسية ، ولا مخالطتها ، ولا الاختلاف إليها ،

فليست بالتي تليق صحبتها ، أو تشرف مودتها . . ترى ، ماذا
عساها رأت في كل هذا الزمن الذي كانت تحتك فيه بالسطوح
وتشرف على ما تحت السقوف ؟! ..

فابتسم ، وبحت عن يديها في فراء يدها ، وضغط على راسها
الرقيق . . . ثم التقيا بفتاة تبيع زهر البنفسج في سلة مغطاة بأوراق
الصنوبر . . . وكأن البنية أدركت أنها منهما بإزاء عاشقين ، فقدمت
إليهما أزهارها ، فاشتري طاقة قدمها إلى تريز . . . وعلى الطرف
الآخر من الجسر قابلتهما بائعة زهور أخرى ، وكانت شمطاء قدرة ،
فتبعتهما بسلتها الممتلئة من ورد نيس . . . وكانت تريز في تلك اللحظة
ممسكة بيدها بنفسجاتها ، فأجابت العجوز بلطف : « شكراً لك ،
حسبي ما معي ! . . » . . . فردت عليها العجوز بشراسة ، وهي تتحول
عنها : « حسبك ما معك ! . . يالك من غريرة صغيرة السن ! . . » . .
فقطنت تريز في الحال إلى توريتها ، ومرت بسمة خفيفة بشفتيها وعينيها . .
ودخلت ، وحملت صاحبها ، على رغمه ، على دخول نوتردام . . . وكانت
أخيلة الشموع تتحرك في أواخر صحن الكنيسة الهائلة ، أمام أشباح
الرهبان ، وآهات الأرغن الأخيرة تذهب وتتلاشى . . . فارتجفت
في ذلك السكون الموحش ، وقالت إنها تشعر بروعة الفناء وجلال
العدم . . . فقال :

— إني أخاف العدم! .. وإذا كانت أرواحنا غير خالدة ،
فلشد ما يكون ذلك أمراً محزناً كئيباً! ..

فلبثت هنيهة ساكنة .. ثم قالت :

— أئى صديق المسكين! .. إنا لا ندرى كيف نفعل بهذه
الحياة القصيرة، أفتريد أنت حياة أخرى خالدة؟! ..
ولقد زعمت لنا معاداً ثانياً ما كان أغنانا عن الحالين!... (*)
واستقلا عربة للعودة ، فتناول يدها وقبلها قبلات متكررة

قصيرة ، وقال :

— أليس يندر وجود حب كحبنا يا تريز؟

— يندر؟ .. لست أدرى! .. لكننى أعتقد أنك تحبني .

— وأنت؟ ..

— وأنا أيضاً أحبك ..

— وهل تثبتين على حبي؟

— من يدرى! ..

ولما رأت أن قد أظلت وجه صاحبها سحابة قالت :

— أأكون أسعد حالاً مع امرأة تقسم ألا تحب مدى

الحياة سواك؟ ..

(*) البيت لأبى العلاء المعرى ، غفر الله له! ..

ونزلت ، ومضى في العربة ليتعشى في النادى ، ورجعت هي
إلى البيت راجلة .. وإذ رأت التروكاديرو يتلأأ كحلية ماسية ،
ذكرت بأعة الزهر العجوز التي قالت لها : « يالك من غريرة صغيرة
السن ! .. » .. فإن تلك الكلمات التي أقيت في عصف الهواء وسواد
الظماء قد عادت إليها ، لا كمداعة ساخرة ، أو مباكتة فاجرة ،
بل عادت قلقاً وحزناً ونذيراً .. « يالك من غريرة صغيرة السن ! .. »
أجل ! .. إنها كانت فتية ، وكانت محبوبه ... ولكنها
على ذلك كانت تشعر بسامة وضجر ، وكانت تغشاها الهموم
الطوارق ! ..

عامت ، عَرَضًا ، في سهرة عندها ، أنه مسافر في الأسبوع
 القادم للصيد والقنص ، مع جماعة من صحبه . فدهشت ، وشرد منها
 اللب . . أيسافر لصيد الثعلب ولا يخبرها حتى بأنه مسافر ؟ . .
 وحان لقاء . .

كانت الغرفة الصغيرة مظلمة ساكنة ، وقد غصت بالسجوف
 والستائر والوسائد وفراء الدببة والطنافس الشرقية التي أخفت كل
 صوت . وكان ضوء النار ينعكس على صفحات السيوف المعلقة فتتألق
 على ورق الجدران . وهناك ، فوق مشجب مصنوع من خشب
 الورد ، كأس فضية جائرة من أحد أندية الرياضة البدنية . وعلى منضدة
 زهرية بلورية ملئت زنبقًا أبيض . وكانت الأضواء البراقة الساطعة
 في كل مكان تخفق في قلب الظلام الحار . وهناك ترير وروبير قد
 ألقت عيونهما الظلمة فأخذا يتنقلان بسهولة في ذلك المحيط المألوف .
 وأشعل سيكاراً ، بينما كانت تصلح من شعرها ، وهي واقفة مستدبرة
 المصطلى أمام المرأة التي كانت لا تكاد تستطيع أن ترى نفسها فيها
 إلاّ بجهد . ولكنها كانت تؤثر ألا يكون ثمّ مصباح أو شموع .
 ولثلاث سنوات خلت تعودت أن تتناول دبايس شعرها من الكاس

الصغيرة المصنوعة من بلور بوهيميا الموضوعة على المنضدة في
متناول يدها .

فراقبها وهي تتخلل بأصابعها الخفيفة كالنور شعرها الذي تساقط
غداً من الذهب الوهاج . وبدت على محياها الذي أكسبه الظل
صلابةً وسمرة : دلالة غامضة مبهمة كادت تكون مخيفة منذرة .
وظلت صامتة . فقال لها :

— لقد زال غضبك ، أليس كذلك يا حبيبتي ؟

— وماذا تريدني على أن أقول ؟ .. فأنت مسافر .. وأراها
مسألة لا تقبل تأخيراً ! ..

أخذت النار تخمد ، والظلال تزداد كثافة ، وهو يفصل رحلته
لصيد الثعلب تفصيلاً ، لم يفتن معه إلى امتعاضها ، وقد زوت ما بين
عينيهما . . وقالت بنغمة من تحلم بأمر : « حقاً إنه ليس من أصالة
الرأى أن تُترك المرأة وحدها . . » . فاقترب منها محاولاً أن يحدق
فيها والظلام مخيم . وأخذ يدها قائلاً : « أوتحيينني ؟ » . فقالت :
« أوكد لك أنني لا أحب سواك ، ولكن .. لا شيء . . »

إنها عنيدة صارمة ، وهذا في دمها ، وقد ورثته عن أبيها الذي
هو ضرب من الرجال الفاتحين الغزاة في عالم المال . . والغزو والفتح
هما العصامية . وقد صحت عزيمة أبيها على أن يثري ويمتلك ويقتني

كل ما يُملك أو يُقتنى ، أى كل شيء . وقد صحت عزيمتها مثله على
أن ترحل وتصون .. فهل كان ما تملكه عندئذ هو السعادة ؟ ..
إنها على شاكلة شرهة طموح ، جِدُّ نزاعة إلى الأحلام والخيالات
والأوهام .. ولها كما لغيرها من النساء حواس ..
فأقسم لها أنه لو لا سبق وعد منه بالسفر لضحى تلك اللذة
الهيّنة إكراماً لها :

— تعرفين يا تريز أننى لا أريد إلا رضاك ، فلا تكونى قُلْباً
كثيرة البدوات والأهواء .

— ولم لا أكون معك كذلك ؟ .. وقد أنلتك منى مارباً ،
ووهبتك نفسى ، فلم يكن ذلك العمل صواباً أو واجب الأداء ،
وإنما كان بداء وهوى من الأهواء .

ولنسلم بأنه قد كان ذلك حباً .. ونعم ، إن مأتاه كان من نحو
قلبي . ذلك إذ عرفت أنك أحبيبتنى . لكنما ينبغى أن يكون الحب
مسرة . ولو لم أجد أنه يشفى منى غلة ، وما الغلة فى الحقيقة إلا أمنيته
وحياتى وصميم قلبي ، لاجتويته ونبذته نبذ النواة ! يالك من رجل
غريب الأطوار ! .. أهوائى ؟ .. هل الحياة كلها إلا بدوات وتروات
وأهواء ؟ ! أليس ذهابك لصيد الثعلب نزوة وبداءة ؟ !

ورأت أنها إذا أصرت على بقاءه فلن يذهب .. لكن كان

السحر قد بطل وسبق السيف العذل . ولم تعد ترغب في هذا الوصال ،
ولا تبحث إلا عن اللذة القاسية التي تنشأ من الخسران في هذا المجال .
وتمنى عليها اللقاء قبيل السفر مرات ، فمنحت نفسها مسرة أن تقول
إنها لا تستطيع العودة في الغد ولا فيما يليه من الأيام : زيارات تُقضى ،
وثياب تقاس ، وأسواق خمرية تقصد ، ومعارض يُجتلى ، وطنافس
تقتنى . . ووقف هو حائراً مرتبكاً أمام مشكلة الفروض الاجتماعية
هذه فلم يمانع ، وإنما لبث صامتاً مغموماً . . وهناك ، بين ثنايا الستر
الشرقي المختلف الألوان ، وقد أدارت بيدها المفتاح في قفل الباب ،
لقتت رأسها نحو صاحبها الذي تغادره ، وقالت بنغمة فيها من السخرية
والكآبة :

— وداعاً رويير ! . . ولتكن سعيداً ! . . ليست زيارتي ولا
رحلاتك إلا أموراً تافهة ، لكن قسمة الإنسان في الحقيقة
منوطة بمثل هذه التوافه . . أستودعك السلامة ! . .

خرجت ، وود لو صحبها ، لكنه عاد فرأى مَعْبَةً مرافقته إياها
في طريق عام ، على حين أنها لم تلحَّ عليه في ذلك . ولما احتواها
الطريق ، أخذتها هزة لشعورها بالباغت بأنها وحيدة ، وحيدة في
الدنيا ، بغير أفراح ولا أحزان . فرجعت أدراجها إلى البيت ماشية

كعادتها . وكان الوقت مساءً ، والجو مثلاً صافياً ساكناً . . لكن
الشوارع المظلمة التي سارت فيها كانت تتكسر فيها الأضواء ،
هنا وهناك ، فدفرتها بذلك الدفء الفاتر الذي يصدر عن المدن وينفذ
حتى من خلال برد الشتاء . سارت بين صفوف الأكواخ والبيوت
ذوات السطوح المائية الباقية من عهد «أوتاي» ، وقد تخللتها عمارات
عالية . ولاح لها كل ما يحيط بها كأنه من طرف خفي يتودد إليها ،
كما خيل إليها أن حجارة الطريق وأبواب المنازل والأنوار العالية
المنبعثة من النوافذ تعطف وتحذب عليها في وحدتها : هذه الوحدة
التي ارتضتها لنفسها . هذه الخطوات التي تقطعها ، كعادتها ، بين
دينك الصفيين من المساكن ، قد بدا لها اليوم كأنها تقطعها لآخر
مرة وتسيرها بلا رجعة . فما علة ذلك ؟ ما الذي جاءها به النهار ؟ .
لم يحثها بخير ولا بشر . على أنها أحست في نهارها إحساساً غريباً
لن يزال عالماً بذلك النهار أبد الدهر . فماذا حدث ؟ لا شيء ! وهذا
اللا شيء محال كل شيء . شعرت بضرب من الاقتناع الغامض بأنها
لن تعود فتدخل تلك الحجرة التي كادت تكون منذ قليل أعز ما في
حياتها وأدعائها إلى الحرص . كانت علاقتها جديدة . وقد وهبت نفسها
برصانة لتحقيق فرحاً كان لازماً لها . إنها خلقت للحب . وهي
راجحة العقل ، فلم تفقد ، إذ تبذل ذاتها ، ميلها الفطري إلى التبصر

والتفكير ، ولا حاجتها إلى الطمأنينة والصفاء . على أنها لم تكن قد
اختارت ، فقلما يتاح لأحد أن يختار . وكذلك لم تدع نفسها تؤخذ
مصادفة واتفاقاً ، أو بتأثير دهش أو خبل . وقالت لنفسها بحزن بالغ :
« ثلاث سنين قضيتها من حياتي مع رجل مستقيم يحبني ، وكنت
أحبه .. أجل ، وإلا لما أسامت نفسي إليه ، ولست امرأة سوء » .

على أنها لم تستطع ، بعد ، أن تجد عواطف تلك الأيام : مغريات
نفسها ومحرضات جسمها ، شوقها الذي كان له في قلبها ركضات ،
وحبها الذي كان له في مفاصلها رَفَضَات ... ولم تشعر بمرارة أو أسى ،
وليس ثمة ما تغتفره وتعفو عنه . فوا أسفاه ! ... إن ذلك الغياب
لأسبوع لم يكن نكثاً للعهد ، ولم يكن إساءة ، بل إنه لم يكن
شيئاً ، ولكنه كان كل شيء ..

كان الخاتمة وفصل الخطاب .

لما صارت بمشهد من المصباح الأغر يقى القائم على « متحف
الأديان » وجدت الأرض مقلوبة عاليها سافلها من شغل في باطنها .
وهناك ، فوق أخدود عميق بين تلّين من التربة السوداء ، وبين
أكوام من الحصى وحجارة الرصف ، وُضع لوح لين ضيق من
الخشب ، بدأت تجتازه ، فإذا بها ترى أمامها على طرفه الآخر رجلاً

وقف ينتظر مرورها . فعرفها ، ورفع قبعته لها . وكان الرجل
« دى شارتر » المثل الذى سألها الكاتب پول فانس ، صديقه
وصديقها ، أن يقدمه لها ، فدعته فى الأسبوع الماضى إلى عشاء
وسهرة أقامتهما فى قصرها .

وإذ كانت تتقدم منه ، بدا لها أنه سرّ بقاءها ، فشكرت له
ذلك بابتسامة . وسألها أن يمشيها بعض الطريق . ودخلا معاً
الميدان الفسيح ، حيث كان الهواء أشدّ عصفاً ، والبيوت المرتفعة
أكثر تباعداً بعضها عن بعض . . فقال إنه قد عرفها على بعدها
من اتزان شكلها وحركاتها : « إن الحركات الرشيقة هى موسيقى
العينين » . فأجابت بأنها تحب المشى كثيراً ، وأنه يسرها ويحدد
قواها . فقال إنه أيضاً يحب المشى فى المدن الآهلة أو الريف
الجميل . يُغريه سر الطرقات الخفى بالسير فيها . . ويحب السفر .
وحتى فى هذه الأيام التى أصبح السفر فيها شائعاً سهلاً لا يزال
يشوقه . وقد رأى أياماً ذهبية وليالى زهية فى بلاد اليونان ومصر
وعلى ضفاف البوسفور .

فقالت له إنها تحب البندقية . فهل تراه سئم الزوارق الطويلة
(الجندول) ، والقنوات المزدانة جوانبها بالقصور ، وحمّام
« سان مارك » ؟ . . فأجابها بأنه يحب عروس الأدرياتيك كما تحبها ،

وكما ذهب إليها تبدّل من مثّال إلى رسام ، لكنه جوها الذي كان
بوده لو يرسمه ! .. وقال :

— في كل مكان غيرها ، حتى في فلورنسا ، نجد السماء عالية ،
قاصية ، نائية . أما في البندقية فهي في كل مكان .. هي تحنو على الأرض
حنوها على الماء ، وتحجب القباب القائمة والواجهات المرورية ،
وتسكب لآلئها وبلورها في الفضاء الملون بألوان قوس قزح . إن
جمال البندقية في سمائها ونسائها . تبارك الله ، ما أجمل نساء البندقية !
إنهن ذوات أجسام كالأغصان ، ونظرات غاية في الجرأة والصفاء .
وما أبدع هَيْف القد الميّاس تحت الشال الأسود ! .. ووالله لو أنه
لم يبق من بدن امرأة منهن سوى عظمة واحدة لأنبات هذه العظمة
بجمال شكلها الفائق ! ...

وسار دى شارتر غير متزن الخطا ، مدفوعاً بفيض أفكاره .
وكانت خطاها أكثر انتظاماً وأسرع من خطاه قليلاً . فنظر إليها
نظرة جانبية ، فرأى الخطا الموزونة والتخطر اللدن الثابت الذي يهواه ،
فتأثر من جمال الصحبة التي ارتفعت منها الكلفة مع غادة لم يكده
يعرفها .. وعاد يقول :

— كنت في « البندقية » في العام الماضي أرى عند خروجي
من البيت كل صباح صبيةً قسيمةً وقسيمةً ، ذات رأس صغير ، ونحر

قوى مستدير ، وقوام معتدل ، جالسة عند بابي ، على قيد ثلاث
خطوات من القناة .. هناك رأيتهما مرة في نور الشمس ، بين الحشرات
والهوام ، نقية كآنية العطر ، شهية كالزهرة . تبسمت .. فيا لشغرها ! ..
إنه كان أعلى الدرر في أبهى الضياء ! .. وما لبثت أن تبيننت أن
تلك الابتسامة كان مقصوداً بها صبيّ جزّار حالٌّ ورأى ، وعلى
رأسه سلاله ! ..

وعند زاوية الشارع ، تمهلت الكونتس في سيرها ، وقالت :
— حقاً إن نساء قنيسيا جميلات .

— يكدن يكن كلهن جميلات يا سيدتي ! وأعني بكلامي بنات
الشعب ، عاملات السجاير ، وصانعات الزجاج .. أما الأخريات
فهن في كل مكان سواء ...

— أتعني بالأخريات نساء الطبقة الراقية ؟ ... فهؤلاء
لا تحبهن ؟

— نساء الطبقة الراقية ؟ ! .. أوه ! .. إن بعضهن فائنات ،
أما الوقوع في أشراك هواهن ، فأمر ذو خطر ! ..
— أو تظن ذلك ؟ ..

ومدت إليه يدها ، واختفت بغتةً في منعطف الطريق ...

في ذلك المساء كانت تريز وزوجها الكونت مارتن بليم يتناولان
العشاء منفردين . . فأخذ يتكلم عن شؤون اليوم ، وهي منصرفة إلى
هواجسها غارقة في أحلامها الحزينة . . . وخيل إليها أنها تسير في
ضباب ، وقد ضلت وبعدت عن الكائنات . . ورأت ، بطريقة
مبهمة ، كأنها تنظر في الظلمات وترى من خلال الضباب شقة شارع
سبونتنى الصغيرة يحملها الزبانية إلى إحدى قمم جبال هيمالايا ، وقد
زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها كأنه يوم الحساب .
وإذا بعشيقها قد اختفى بسكون ، وهو يضع قفازيه في يديه . . .
فجست نبضها لترى أهي تعاني الحمى . . . ونبها بغتة رنين فضيات
المائدة ، فسمعت زوجها يحدثها عن السياسة والسياسيين في البرلمان ،
فابتسمت ، ثم عقت مباشرة :

— تعرف أن مس بل دعتنى إلى تمضية شهر عندها في فيزول ،
وقد قبلت دعوتها . . فأنا مسافرة . .

فسألها ، ودهشه أقل من استيائه ، عمن تسافر معه . . وكان
الجواب حاضراً فألقته من فورها :
— مع مدام مارميه .

— وهل أخبرتها؟ ومتى تسافرين؟

— في الأسبوع القادم .

فكان من الفطنة بحيث لا يبدى إذذاك اعتراضاً لعلمه أن المعارضة لا تأتي إلا بتثبيت ما حسبه مَيْلاً عارضاً ، وخشى تكوين هذه الفكرة الخرقاء في ذهنها . . . وإن كان قد انزعج لهذا السفر الفجائي . وكان كلاهما قد استعاد حريرته ، لكنه لم يكن يشعر بنفسه وراحتها إلا ومعه زوجته وبيته على أتمه . . . وفوق ذلك كان معزماً إقامة مآدبتين أو ثلاث مآدب سياسية كبيرة أثناء انعقاد البرلمان ، إذ رأى حزبه يشتد ساعده ، وهذه هي اللحظة التي يثبت فيها نفوذه ، ويعلو صوته . .

ثم وقف عن الكلام ، فقد كانت غير مصغية له ، ولا معنية به . وتاهت في عالم الأحلام حزينة يائسة . . . وخيل إليها أن تلك المرأة الجميلة التي كانت هناك ، في دفء الحجرة المغلقة وظلها ، واقفة حافية على سجادة سمراء مصنوعة من جلد الدب ، بينا عشيقها يقبل قفاها ، وهي تعقص شعرها أمام المرأة . . خيل إليها أن تلك المرأة لم تكن هي بعينها ، ولم تكن امرأة تعرفها ، أو تحب أن تعرفها ، وإنما سيدة أعمالها لا تهمها . . وعندئذ سقط دبوس لم يكن مثبتاً جيداً ، دبوس من تلك الدبايس التي كانت في كأس البلور البوهيمي ،

سقط من شعرها على عنقها ، فانتفضت ..
وخرجا معاً ، وكلاهما صامت عابس ، إلى البهو الصغير حيث
كان پول فانس ينتظر ، وكان يأتي عادة في المساء بلا كلفة ..
فصاغتة ، قائلة :

— لشد ما تسرني رؤيتك ، وأريد أن أودعك إلى حين ...
فباريس باردة الجو ، قائمة الأديم ، وجوها هذا يتعبنى ويحزني ،
فأنا ذاهبة إلى فلورنسا لتمضية بضعة أسابيع عند مس بل ، وسأجول
من فلورنسا جولات لأغسل نفسي ، وأغطسها فيما حولى ، وأنتهى
بالذهاب إلى البندقية التي حدثني صديقك دى شارتر حديثاً خلافاً
عن جوها الشبيه بالآلىء ..

وخرج الكونت مارتن معتذراً بأن عليه إتمام تقرير وتقديمه
في اليوم التالى فلا يستطيع إطالة المكث معهما .. وتمنت الكونتس
لوصحبها في سفرها أيضاً الشاعر البوهيمى «شولت» الشيخ العريد
الفذ في إنسانيته .. ثم قالت :

— على فكرة ، أريد أن أهنئك بصديقك دى شارتر .. إنه
روح جذاب ... على أنى أظنه شديد التحرز أكثر مما يجب ...
فذكرها فانس أنه طالما قال لها إن دى شارتر سيروقه ،
فهو صديقه منذ الطفولة يعرفه قلباً وقالباً ... وهو الابن الوحيد

لفيليب دى شارتر المهندس المشهور الذى أعاد بناء صروح كنائس
تورين وأورليان فى عهد نابليون الثالث . . . لكنه مات فى مقتبل
العمر ، ومع ذلك ترك لأرملته وابنه ثروة كافية . . . وتشقف چاك دى
شارتر على يدي أم كانت تعبده عبادة : « وما كنت أحسب حب
الأم يبلغ هذا المبلغ . . . ولعمري إن چاك فتى ظريف ، ولو أنه طفل
مُدَلَّل ! » . . . فقالت :

— ومع ذلك يبدو خَلِيَّ البال ، لين العريكة ، ويلوح عليه أنه
من الزاهدين ! . . .

— لا تأمني له ! . . . إنه فى ذاته عقل لا يهدأ ، ويسبب للغير
عدم الهدوء . . . إنه مخيَّلة مُعَذِّبة مُعَذِّبة . . .

— وهل يجب النساء ؟

— ولم تسألين ؟

— أوه ! ليس لإعداد زوج له !

— نعم ، إنه يجب النساء . . . ولقد قلت لك إنه أنا ،
والآنانيون وحدهم هم الذين يحبون النساء حقاً . وبعد موت أمه قضى
زمنًا غير قصير متصلًا بمثلة معروفة تدعى : « چان تانكريد » .

فقالت الكونتس :

— إننى أكاد أذكر چان تانكريد هذه ، فهى امرأة ليست

موفورة الحسن ، وإن كانت حسنة قسامة الجسم ، وذات رقة
واهنة نوعاً ما في تمثيلها دور العاشقة ..

— هي بعينها ... وكانا يعيشان معاً في بيت صغير في حي
« أوتاي » . وكنت أزورها فأجده تائها في أحلامه وتمثيله ما كفاً
على ذاته غير معنى بسوى أفكاره ، وتكون هي في تلك الأثناء
تستظهر أدوارها ، وفي عينيها معاني الحياة والحب .. وقد أحبته
حقاً .. بيد أنها أباحت أن يراها الناس بصحبة « جوزيف سبرنجر »
الذي وثقت معه عرى المودة على أمل أن يدخلها مسرح الكوميدي
فرانسيز .. فغضب دى شارتر وهجرها .. وهي الآن ترى العيش
مع مديري الفرق التمثيلية أصلح لها ... ويؤثر چاك السياحة
والسفر ...

— وهل يأسف عليها ؟

— ومن ذا الذي يعرف ما يكون من روح حائر وعقل قلق
متعطش لإعطاء نفسه ، سريع الرغبة في استرداد عطيته ، أناني ،
ولوع ، يعشق نفسه عشقاً حاراً في كل ما يجده مثلها جميلاً
في الوجود ..

وفي ذلك المساء نفسه ، اضطجعت في سريرها ، وفتحت كتاباً

قبل النوم كمعادتها ، وكان قصة . فقلبت صفحاته عَرَضًا . . حتى لفتت
نظرها هذه السطور :

« الحب ، كالتقوى ، يأتي متأخرًا . وكلما تكون المرأة عاشقة
أو تقية في سن العشرين ، ما لم تكن ذات استعداد خاص ، ذات
نوع من القداسة الفطرية . وحتى المقدّر عليهن ، المصطفيات أنفسهن ،
يقاومن طويلًا نعمة الحب هذه ، لأنها أشد هولاً من الصاعقة التي
تنقضُّ على طريق دمشق . فالمرأة غالباً لا تستسلم للغرام إلا في
السن التي لا تزعمها فيها الوحدة . فما الغرام إلا صحراء قاحلة ، صحراء
« طيبة » المحرقة . إن الغرام زهد دنيوي كالزهد الديني في خشونته ،
سواء بسواء . لذلك نرى الغرام العظيم نادراً في النساء نادرة
الزهد العظيم .

وأولئك الذين حلبوا شطرى الدهر ، وسبروا غور الحياة الدنيا ،
يعلمون أن النساء لا يلبسن عن طيبة خاطر ، فوق أجسامهن الرقيقة ،
قميص الحب الصادق المصنوع من الوبر . ويعلمون أنه ما من شيء
أندر من التضحية الطويلة الأمد . ويتأملون في مبلغ ما على المرأة ،
امرأة العصر ، أن تضحي به — إذا ما أحبت — من حريتها وصفائها ،
ومرح نفسها الطليقة ودلالها وملاهيها ومسراتها ، وقصارى القول :
التضحية بكل شيء ، لأنها تخسر كل شيء .

الغزل البريء مسموح لها به . فهو يتمشى وحاجات الحياة المترفة .
أما العشق ، فلا . فالعشق هو أقل العواطف متاعاً دنيوياً ، وأكثرها

مخالفة للعرف ، وأشدّها وحشية ، وأظهرها همجية . لذلك يحكم عليه
الناس حكماً أقسى من حكمهم على الغزل البريء وخفة الطبع . والناس
مصيبون من جانب واحد .

فالمرأة الباريسية العاشقة تناقض طبيعتها ، وتقتصر في أداء وظيفتها
التي تقتضى عليها بأن تكون للجميع كطُرفة من طُرف الفن . إنها عمل
فنى ، وأعجب ما أنتجه أبداً فن الإنسان . هى استنباط مجيد ، ثمرة
اتصال الفنون الآلية بكافة الفنون الحرة . فهى الصنعة المشتركة ، وهى
الخير العام ، وواجبها هو : « الظهور » ... »

فأقفلت تريز الكتاب ، وقالت فى نفسها إن هذه هواجس
القصصيين الذين لم يعرفوا الحياة . فهى تعلم علم اليقين أنه فى الحقيقة
لا يوجد جبل عواطف كجبل « الكرميل » ، كما أنه لا يوجد قيص
حب من الوبر . ولا تعلق جميل مهول يقاومه المصطفيات المقدر
عليهن الحب مقاومة لا نفع منها .

كانت تعرف أن الحب ما هو إلا نشوة قصيرة إذا مضت
تركت صاحبها محزوناً نوعاً ما . . . ومع ذلك كله ، فأه ، ليتها كانت
تكون غير عارفة كل شيء ! . . . فيكون هناك حب تهوى فيه المرأة
قريرة العين ! . . .

وأطفأت مصباحها ، فعادت إليها من أغوار الماضى أحلام
روّق شبابها . . .

أخذت الشاعرة الإنجليزية مس بل كلاً من الكونتس ومدام مارميه في مركبتها التي ساقتها بنفسها على منحدرات التل من محطة فلورنسا إلى بيتها بفيينزول . . وكان مطلياً بلون الورد ، تحيط به شرفة كبيرة ، ويطل على المدينة التي ليس لها نظير . وجعلت ترحب بضيفتيها الفرنسيتين في دارها التي كانت تتجلى فيها آيات لطفها المصقّ وذوقها السليم .

وكنّت تجد في كل مكان شعار مس « بل » Bell ورمز اسمها ، وهو تلك الأجراس الكبيرة والصغيرة من كل البلدان وكل الأزمان . كأنها أقبلت من كل أنحاء المعمورة وعلى مدى العصور ملبية النداء السحري الذي وجهته إليها الشاعرة بل !

وأخذتهما إلى حجرتيهما . . وبعد ساعة نزلت الكونتس مارتن ، بعد ما تجددت قواها ، في ثوب من الحرير الموشى ، إلى الشرفة ، حيث كانت مس بل في الانتظار . والشمس لا تزال واهنة فاترة ، وإن كانت منتشرة ساطعة . وكان الهواء الرطب عابقاً بشذى الربيع . فاستندت ترينز إلى سور الشرفة ، وكحلت عينيها بالنور . . وهنا ، عند قدميها ، ذهب شجر السرو صُعداً رافعاً هاماته السوداء ، وقد

اشتبكت أشجار الزيتون فوق المنحدرات . وهناك في جوف الوادى
نهدت فلورنسا بقباها وبروجها وسقوفها العديدة الحمراء ، ينساب
بينها نهر « الأرنو » متموجاً متعرجاً .. ووراء ذلك كله ، تنهض
الروابي الزرقاء ...

ثم قالت مس بل فجأة لضيقتها الكونتس ، وكانت تدعوها
« عزيزة » :

— أتعرفين يا عزيزة مسيو چاك دى شارتر؟ .. إذن فاعلمى أنه
كتب إلى أنه سيكون بفلورنسا فى الأسبوع القادم .. وشد ما يهيجنى
أن يكون فى مدينتنا وأنت فيها .. وسيصحبنا إلى المتاحف والكنائس ،
فيكون نعم المرشد الدليل .. فهو يفهم الأشياء الجميلة ، لأنه يحبها ..
وهو مثال ممتاز تقدر تماثيله فى انجلترا أعظم مما تقدر فى فرنسا ..
وافرحتا باجتماع مسيو چاك دى شارتر وإياك ، فى فلورنسا ! ..

وجاء دى شارتر لتناول العشاء فى بيت الشاعرة ... وحيا
الكونتس مارتى بفرح مكتم لم يكده يخفى ، وخاطبها بقوله :
— قبل أن أغادر باريس ذهبت أزورك ، فأنبأونى أنك سافرت
تستقبلين الربيع عند مس بل فى فيزول ، فأملت إذ ذاك فى لقاءك
بهذه البلاد التى أحبها الآن أكثر من حى لها أبداً .. وجلس إليها

يسألها عن ذوقها في الفن والجمال ، مؤيداً ، موحياً ، مشجعاً ،
مستثيراً إعجابها . . . يريد أن ترى في كل شيء ما يرى ، وأن تحب
ما يحب . . . ثم أرادها على أن تذهب إلى الحديقة في فجر الربيع
البسام . . . وراها سلفاً بعين بصيرته على الشرفات الكبيرة ، وسبق
فشاهد النور يزهر ساطعاً على نحرها مداعباً شعرها ، وظلّ شجر
الغار يظلم قليلاً قليلاً على حور عينيها . . . وخيّل إليه أن فلورنسا
بأرضها وسمائها لم تخلق إلا لتكون زينة هذه الغانية الغيداء . .
وأثنى على بساطة ملبسها ، وقال إنه أحب فيها حتى أثوابها
الرفيقة . . . ومع أن تريز كانت شابة مدلّة ، وطالما سمعت ضروب المديح
والإطراء ، فإنها لم تسرقط سرورها بهذا الشناء . . . فهو إعجاب رجل
خبير . . . وهو يشعر بعرفان الجميل نحو المرأة التي تجيد لبسها وتحسن
زينتها في وسط الأذواق الشائعة ، فتمر أمامه معتدلة القوام ، متزنة
الخطوات ، حتى كأن خطوها نغمات . . . وهي ، إذ تعنى كل يوم
بتبرجها وزينتها ، تلقى درساً على رجال الفنون ، لأنها لميقات قليل
تغيّر ثيابها ، وترجل شعرها ، وتلك عناية غير ضائعة . . . فعلى الفنانين
أن يحذوا حذوها ، فيزينوا الحياة دون تفكير في مستقبل الأيام . .
وما الرسم والحفر والكتابة للأجيال القادمة سوى محض من سخف
الغرور ! . .

وبعد ساعة ، كانت ترينز مضطجعة في غرقتها ، ورأسها على
الوسادة ، وقد ألفت فوقه ذراعها العارية الجميلة ، واستسامت في
ضوء المصباح للأحلام ، ومرت أمام عينيها ، بلا انتظام ، صور
حياتها الجديدة . . فرأت فيما رأت دى شارتر ينو بعينين يتألق
فيهما الشباب ، وله محيّا يغلب عليه الوهن ، وهيئة أفريق ، لبشرته
السمراء ولحيته المدببة . . وذكرت مخيلته الفاتنة ، وعقليته الغنية ، التي
هى أغنى من كل ما عرفته من قبل من عقول الرجال ، وجاذبيته التي
لم تعد تستطيع مغالبتها أو مقاومتها . . وقد عرفت أنه أراد أن يُعجَب ،
فأعجَب . . فاهترت ارتياحًا لهذا الخاطر ، وأغمضت عينيها كأنما
أرادت أن تحتفظ به . ثم عرض لها فجأة صاحبها روبر لومنيل في
ثوب الصيد ، متأبطًا ببندقيته ، يمشى ، لا يلتفت ولا يلوى ، حتى
صار نقطة سوداء في الغابة الموحشة . . فشعرت أنها عنفت عليه ،
وكانت جدّ قاسية ، إذ تركته دون كلمة وداع ، أودون كتابة خطاب ،
وقد كان حبيبها الوحيد الذي لم يكن لها قط حبيب سواه . . . على
أنها ذكرت أنه لحسن الحظ ليس قوى الحس ، ولا سريع القلق ،
فهو يصيد الآن ، وهو بصيده سعيد ! . . واستردّت رباطة جأشها ،
وأسامت نفسها مرة أخرى إلى أفراح فلورنسا ومغانى ضواحيها . . .

وفي الصباح التالي بكرت ، وسرّها أن ترتدى ثيابها بعناية ،
ونزلت ، ووقفت إلى سور المشرف ، ونظرت إلى بعيد ، إلى الجنّات
الفيحاء من حولها ، باحثة فيما وراء أوقيانوس النور عن قم التلال
والجبال التي تكاد تكون ، في ظلال السحب ، كالعهن المنفوش .
وكان لدى شارتريلحظها . . نخيل إليه أنه يراها لأول مرة . .
فمثل هذا الحسن الطريف البديع قد استكشفه على محياها الذي ،
وإن خططه جهد الحياة والفكر ، لم يسلبه بهاء الفتوة ، ولا سنا
الصبوة . وكانت فاتنة فعلاً ، وضيئة المحيا ، على خديها الأسيلين
وردتان ، وفي حدقتيها الممزوج لونهما الرمادي باللون السماوي :
ضحكتان . . فإذا تكلمت أشرق لؤلؤ ثنايها ، فكانت له عذوبة حارّة
تصلي الفؤاد ناراً . . . وبلمحة من هذا الفنّان قدّر تقاطيع غصنها
الرطيب ، من صدر ناهض ، وثندي ناهد ، وخصر واهن ، وردف
مقوّس مهيل . وكانت قد أخذت يسراها مظلتها ، ويمنهاها المتجردة
من قفازها جعلت تعبث يبنفسجات . . وكان لدى شارترميل ، بل
شغف ، بل هوس بالأيدى الجميلة . . . وكان يرى أن لليد روحاً ،
ولها سمة وسحنة ناطقة كالمحيا . . . وقد سلبته يدا ترير وفتنتاه ، لأنهما
كأنتا يدين شهوانيتين روحانيتين معاً . . . فعبد أصابعهما الدقيقة
الأنامل ، وأظفارهما العناية ، وبشرتهما الرقيقة المخططة بسطور

أنيقة كالنقوش العربية الصاعدة ، عند أسفل الأصابع ، نحو العقدة
بلطف واتساق . . . فضلٌ يحدق في يديها مبهوراً مفتوناً ، حتى ضمت
يدها على مقبض مظلتها .

ها هي ذي تريز ترى في دي شارتر روح الأشكال الشائقة ،
وعقل الأشياء الرائعة . . . إن مشاهد الحياة التي حولها لم تكن تروقها
إلا بقدر ما كانت تروقه . فكيف نما ذلك العطف ، ووجدت وحدة
الحسن بينهما ؟ . . . لم تعرف تماماً . ففي البدء ، حين أراد پول فانس
تقديمه إليها لم تجد من نفسها رغبة في معرفته ، ولم تتسلف شعور الميل
إليه ، وذكرت تماثيل البرنز وأشكال الشمع الجميلة التي لفتت نظرها
في معارض الفن . على أنها لم تتصور قط أنه يمكن أن يكون مستملاً
أو جذاباً أكثر من غيره من الفنانين والهواة العديدين . . فلما رآته
أكبرته ومالت إليه ، وصحت عزيمتها على توثيق عرى المودة بينها وبينه .
وفي الليلة التي تعشى عندها فيها تبينت أن ميلها إليه كان ضرباً من
الميل العقلي النبيل الذي سرّها وأرضى كرامتها . ولكنه لم ينشب أن
ضايقها ، نوعاً ما ، بشدة انكماشه وتحفظه وشغله بنفسه وعكوفه على
ذاته وانصرافه عنها غير معنيٍّ بها إلا يسيراً . فودّت لو تجد إلى لمس
قلبه سبيلاً . وعلى هذه الحال ، غير الراضية ، المنغصة بأسباب آخر ،

وشعورها بوحدتها في الوجود ، قابلته ذات مساء أمام متحف
الأديان ، فحدثها حديثاً عجيباً عن البندقية ، ورأته في ظلام الليل رزيناً
فاتناً ، بما في صوته العذب من حرارة وما في نظراته الودیعة من صفو ..
لكنه بتحفظه وانقباضه جعلها تحس الضيق والضجر .. وها هي ذی ،
حتى هذه اللحظة التي تماشيه فيها على مشارف هذا القصر ، في بلد
بعيد عن باريس ، ما إن تزال غير قادرة على الحكم : أترید رؤيته
دائماً ؟ أم لا تريدها بعد أبداً ؟

ومذ قابلته في فلورنسا كانت مسرتها الوحيدة أن تراه على مقربة
منها وتسمعه يتحدثاً إليها . فقد جعل حياتها جذابة بما أدخله عليها
من تغيير وطلاوة وجدّة ، وكشف لها عن أفراح الفكر وأحزانه
العذبة ، وأيقظ شهوات المسرات التي كانت فيها كامنة .. فعزمت
عزماً قاطعاً على الاحتفاظ به ورعايته . لكن كيف ؟ ! لقد استبانت
الصعوبات سلفاً . وعرضها عليها جميعها عقلها النير وشعورها القوی .
فحاولت أن تخدع نفسها لحظة من وقتها ، فقالت : قد يكون رجلاً
متحمساً من أهل الخيال ، تأمهاً في عالم الأحلام ، غارقاً في دراسات
الفن ، فلا يكون له جمّ الشغف بالنساء ، فيظل سائراً مثابراً ، دون أن
يتطلع ليكون مطالباً جائراً .. لكنها سرعان ما هزّت فوق الوسادة
رأسها الجميل الغارق في جدائل شعرها الأشقر المتموّج الرجراج ، ثم

نبذت هذه الفكرة .. فلو أن دي شارتر كان من غير أهل الهوى
لفقد كل فتنته لها . فكفت عن التفكير في المستقبل ، خاشية ..
ستعيش في الحاضر ، هائلة قلقه متلهفة مغمضة العينين ...
وهذا حسبها .

كذلك كانت تتأمل في الظلمات التي كانت تشقها أشعة النور،
حين دخلت عليها وصيقتها حاملة رسائل وشاى الصباح ، فميزت
خط صاحبها لومنييل السريع البسيط على غلاف موسوم باسم نادى
شارع رويال ، وكان في رسالته يعتب عليها ، عتباً معقولاً ، أنها سافرت
دون أن تخبره أو تترك له كلمة وداع ، فاعلة ذلك ؟ وقد ظل منذ عودته
إلى باريس ينتظر كل يوم رسالة منها بلا جدوى :

[ولقد بهت لسماع نبأ رحيلك ، واستقبلنى قرينك ، فأخبرنى أنك
سافرت لتمضية أيام الشتاء الأخيرة عند مس بل فى فلورنسا طوع
مشورته ، لأنه كان منذ حين قد لاحظ عليك الذبول والنحول ، فرأى
فى تغيير الهواء ما ينفعك . أما أنا فلم ألاحظ أنك كنت تزدادين نحولاً ..
فضلاً عن أن فلورنسا لا تعد مشقاً . ولست أفهم منك هذا الرحيل
الذى يعذبنى كثيراً . فاكتبى إلى من فورك .. أتوسل إليك .. دعينى
أطمئن عليك .. ولعلك تزعمينى مرتاحاً لسماع أخبارك من فم زوجك
وإيداعه إياى أسراره ! .. إنه يشق عليه غيابك ، ويجزئه أن تضطره

واجباته العامة إلى البقاء بباريس في هذا الوقت . وسمعت في النادى
باحتمال دخوله الوزارة ...]

ثم حكى لها حكايات صيده وقنصه ، وأنه أحضر لها جلود ثلاثة
ثعالب ، أحدها بديع جداً ، لأنه جلد حيوان باسل ، أخذه بذنبه
وأخرجه من جحره ، فارتد إليه وعضه في يده ! ... وختم رسالته
ملتمساً أن تكتب وتعود بلا تأخير ...

فلما قرأت الخطاب ، مزقته ببطء ، وألقت به في النار ، ونظرت
إليه وهو يحترق ، محزونة ، واجمة ، مفكرة .

إنه محق عن يقين . وقد قال ما كان ينتظر منه أن يقوله . وشكا
إذ كان ذا حق في الشكاية . فبم تجيبه ؟ أتطيل معه النزاع وتظل تتجنى
عليه وتتجهم له ؟ على أن الأمر لم يعد أمر تجنّ وتجهّم . بل لعله حال إلى
شفقة . إنها لم تعد كما كانت . لقد فرقت بينهما أشياء غير محسوسة ، وإن
كانت قوية قوة التقلبات الجوية المحيية المميتة . قالت لنفسها : « إنه
وائق منى مرتاح البال ! » وهذا أشد ما عيل له صبرها . فطالما ضايقها
أولئك السذج البسطاء الذين لا يرتابون في أنفسهم ولا في سواهم ! ..
ورأت دى شارتر بعد ذلك ، فسألته : ألا يراها اليوم ممرورة
كئيبة ؟ ! فقال : كلا ! . إنه لم يرها كذلك ، لكنه يحسبها نوعاً ما
حزينة .. وأضاف :

— ويا أسفا على ألاّ حق لي في معرفة أحزانك وأفراحك! ..

فنظرت إليه نظرة عجلى ، فيها شيء من القسوة ، وقالت :

— لا يدور بخلدك أننى سأجعل منك موضع سرّى! ..

أليس كذلك؟!

وغادرت بهتةً ، عمداً عين .

في اليوم التالي ، عند ما استيقظت من نومها ، قالت لنفسها :
 إن الواجب يقضى عليها بالرد على رسالة صاحبها روبر لوميل .
 وكان الجو ماطراً . فأصغت بفتور إلى قطرات الماء تساقط على
 مشرف القصر . ولم تجد أمامها ، مما أعدته مضيفتها لها للكتابة ،
 غير ورق بنفسجي شاحب موشى بالفضة ، وجر قزحي اللون يتحول
 على الصفحة إلى لون سماوي ذهبي . . فذهب صبر تريز ، وبرمت
 بهذا الذي لا يتناسب مع الخطاب البسيط الصريح الذي تريد كتابته .
 وعانت في صياغة الجمل الأولى . وفي الصفحات الأربع قالت قليلاً
 وعنت أقل . واكتفت بوصف المتاحف ، وسرد أخبار مضيفتها ،
 واكتفت بإخباره بأنها ستبقى شهراً آخر في فلورنسا حيث ينفعها
 الطقس . ثم كتبت إلى أبيها وزوجها وصديقتها الأميرة «سنيافين» . .
 ونزلت الدرج وفي يدها رسائلها ، ووضعت ثلاثاً منها على الصحن
 الفضي المعد للبريد ، ووضعت خطاب لوميل في جيبتها حذر الفضول
 والعيون ، على نية أن تضعه بنفسها في أحد صناديق البريد في الطريق
 عند خروجها للتنزه . ولم ينشب دي شارتر أن جاء ليصحب
 الصديقات الثلاث إلى المدينة . . وبينما كان ينتظر في الردهة رأى

الرسائل على صحن الفضة . فنظر ، دون اعتقاد منه بالاستدلال على
الخلق بخط اليد ، وتأثر بشكل الحروف التي بدت له في جلاء وتأنق
خاص كأنها نوع من الرسم . فتنه خط ترينز بما لاح له فيه من صراحة
وبساطة ، ونظر بإعجاب شهواني إلى العنوانات من غير أن يقرأها . . .
وزاروا كنائس ومتاحف . . . ولما آن انصراف السيدات
لشراء حوائج لهن ، انتهز دى شارتر فرصة قربه من ترينز ، فقال لها
يجد كاد يكون صارماً : « أعرفت ... ؟ » . . فنظرت إليه وانتظرت . .
فأتم جملة : « ... أنى أحبك ؟ » . . . فظلت لحظة صامتة ،
شاخصة إليه بعينيها النجلوين ، اللتين تختلج جفونهما ، ثم حنت
رأسها ، مؤمنة على قوله ، وذهبت ، دون أن يحاول منعها ، إلى مس بل
ومدام مارميه ، وكانت بانتظارها في آخر الطريق . .

والتقين بعد ذلك وإياه ، للعودة جميعاً إلى ضاحية فيزول .
وبينا كانوا يقتربون من تمثال « سان مارك » رأت ترينز صندوقاً للبريد
مثبتاً في حائط الطريق الضيق . . وانتهزت فرصة تأمل أصحابها في
تمثال سان مارك فدرست خطابها في الصندوق . . فراها دى شارتر .
وشعر لساعته كأنما أصابت قلبه طعنة نجلاء . فحاول أن يتكلم
أو يبسم . ولكن اليد المكسوة بقفازها ، التي ألقت بالخطاب في
صندوق البريد ظلت ماثلة له . وتذكر أنه رأى في ذلك الصباح رسائل

تریز علی الصحن الفضى فی الردهة . فلم لم تضع هذه مع تلك ؟ ..
لم یکن حزر السبب بعسیر .

فوقف جامداً ، مشرّداً اللب ، شاخص البصر إلى غیر شیء ..
وحاول أن یسکن روعه بقوله : « قد یكون خطاباً غیر ذی بال
وإنما أرادت إخفاءه اتقاء فضول مدام مارمیة الملحاح .. ولكن لا ! ..
لقد برح الخفاء . إن لها عاشقاً ! . وقد کتبت إليه ، ولعلها قالت :
« رأیت الیوم دى شارتر ، وصاحبنا المسکین مُدَلَّه بی » ..
وأيّاً ما کان کتابها ، فلها عشیق . ولم یکن خطر له مثل ذلك الخاطر
قط . وأصابته فكرة أنها لسواه ، هذه الفكرة المباغته ، بآلام
مبرّحة فی جسمه وروحه معاً . وظلت تلك الید ، الید الصغیرة ملقّية
الخطاب ، ماثلة أمام ناظریه ، باقية فی عینیهِ ، تلهمهما إلهاباً موجعاً ..
لم تدرك تریز سر سکوته ووجومه الباغتين ، یید أنها وقد رأته
ینظر قلقاً إلى صندوق البرید حزرته من فورها ، فعجبت أن یغار
بلا حق . علی أنها لم تشعر باستیاء .. ولما وصلوا ، قال دى شارتر
مخاطباً تریز بلهجة الأمر المتوسّل :

— لی معك حدیث ، ویجب أن ألقاك علی حدة ، فكونی غداً
فی الساعة السادسة بلونجارنو أتشیأولی ...
فلم تحر جواباً .

في نحو السادسة والنصف ، وصلت إلى لونجارنو أتشياؤلى
متشحة بمعطفها الصدفي ، فاستقبلها دى شارتر بنظرة منكسرة براقة ،
أثرت في نفسها ، ولمست شغاف قلبها .

وكانت الشمس الجانحة إلى المغيب تصبغ مياه نهر « الأرنو »
المتلاطمة بلون الأرجوان .. فكثا هنيئة صامتتين . ثم سارا نحو :
« پون ثيو » متتبعين صف القصور القائمة على نسق ونظام .
وكانت هي التي بدأت الحديث بقولها :

— ها أنت ذا ترى أنني جئت ، إذ رأيت واجباً عليّ أن
أجىء ، فلست أشعر بأني بريئة مما حصل ، فأنا عارفة بأني قد
فعلت كل ما يجعل موقفك حيالي هو موقفك الآن ، وقد أوحى
إليك تصرفي أفكاراً ما كانت لولا تصرفي لتخطر لك في بال ..
فبدا عليه كأنه لم يفهم ، فعادت تقول :

— كنت أنانية ، وكنت غير حازمة ، فقد أعجبتني ، واستهواني
ذكاؤك ، فلم أعد أستطيع إفلاتك ، فبذلت كل ما في طاقتي
لأجتذبك ، وأحتفظ بك ، فتظرفت لك ، ولم أفعل ذلك ببرودة
قلب ، أو قصد الخديعة ، ولو أنني فعلاً تظرفت ..

فهرأسه منكراً أنه لاحظ ذلك أو فطن له ، فقالت :
— أجل ! . . لقد نظرت لك ، ولم يكن من ديدنى التطرف
لأحد ، ولست أزعم أنك حاولت استغلال ذلك ، وإن كان من
حقك ، أو أزعم أنك لمحاولتى هذه قد ذهبت بك الخلاء ، أو لعبت
بعطفك الكبرياء ، وقد يجوز أنك لم تلحظ ذلك ، لأن ذوى المواهب
العالية ينقصهم أحياناً الدهاء . . بيد أنى أعرف جيداً أننى لم أكن كما
ينبغى أن أكون . . . فصفحاً جميلاً ! . . وهذا ما أتيت من أجله ،
فلنبق صديقين حميمين ما بقينا على قيد الحياة .

فقال لها ، فى رقة حزينة ، إنه قد أحبها ، وبدأ حبه سهلاً مفرحاً
لذيذاً ، واجتمعت أمانيه فى أن يراها ثم يعود فيراها ، لكنها ما لبثت
أن اهتمت مشاعره واسترقت فؤاده ، وجعلته بمنزل عن نفسه . .
فانفجر بأس هواه بغتة وبقوة ، فى ذات يوم ، على مشرف قصر
فيروز . . . والآن أصبحت تعوزه الشجاعة ليألم صامتاً ، وهما هو
ذا صرخ ملتصقاً معوتها ، وهما هو ذا أتى بغير خطة مرسومة . . .
وإذا كان قد باح لها بحبه ، فذلك لأنه لم يعد يستطيع الكتمان ، وعلى
الكره منه ، وبضغط الاحتياج القاسى للتحدث عنها ، وإليها ،
لأنها ، فيما يتعلق به ، المخلوقة الوحيدة الكائنة . . حياته لم تعد فيه ،
وإنما فيها . فلتعرف إذن أنه يهواها ، وليست عواطف هواه بالريقة

الخافية ، بل إنه كلف جارف وشغف جارج ، وإنه ولع شديد وعشق
مبيد ! .. ووا أسفا ! .. إن له مخيلة كاملة محكمة ، فهو يعرف ،
ويعرف بالدقة ، ويعرف على الدوام ، ما يريده ، وهذا عذاب ..
وعنده أنه باجتماعهما وامتزاجهما سيتمتعان بالمسرات التي تجعل
للحياة قيمة ، وسيكون وجودهما عملاً من أعمال الفن الخبيثة الجميلة ،
وسيفكران معاً ، ويفهمان معاً ، ويشعران معاً . وستكون دنياهما
التي يعيشان فيها دنيا عجيبة بما فيها من خواطر :
— سنجعل الحياة جنة وارفة الظلال .

فتظاهرت بتفسير هذا الحلم على وجه برىء ، فقالت :
— ما أشد افتتاني بعقلك ، حتى لقد عاد من أخص حاجاتي أن
أراك ، وأن أسمعك ، وقد أوضحت لك هذا بكل جلاء .. فكُن
واثقاً من صداقتي ، وكن مطمئناً ..

ومدت إليه يدها ، فلم يأخذها ، وأجابها مغتاظاً :
— لا أريد صداقتك ! .. لا أريدها ! .. يجب أن تصيرى
لى بكليتك ، وإلا فلن أراك مرة أخرى .. وأنت تعرفين ذلك حق
المعرفة ، فلماذا تقدمين إلىَّ يدك مصحوبة بكلمات ساخرة ؟ ..
سواء أقصدت أم لم تقصدي ، فقد نفثت فيَّ اشتهاً مؤثماً وشوقاً
لاعجاً ، وصرت لقلبي ألمه وعذابه ، والآن تسأليني أن أكون

صديقك؟! .. إنك القاسية المتطرّفة الآن! .. فإذا كان لايسعك
أن تحبيني فدعيني أفارقك ، وسأذهب ، ولست أعرف إلى أين ،
لأنساك وأكرهك ، فإنني أشعر نحوك في صميم قلبي بالكره والكدر
معاً .. أوّاه، إني أحبك! .. ولشدّ ما أحبك! ..

فصدّقت قوله ، وخشيت هجره ، وروّعتها سلفاً كآبة الحياة
المظامة من دونه ، فقالت :

— لقد وجدتُك في حياتي ، ولا أريد أن أفقدك .. لا ..
لا أريد! ..

فحاول في استحياء وتأثر أن يغمغم شيئاً ، لكن الكلمات
طعنته في حلقه ، وكان الشفق ينحدر على الجبال البعيدة ، وأشعة
الشمس الغاربة الأخيرة تتضاءل وتتلاشى .. فعادت تقول :

— لو أنك عرفت حياتي ، لو أنك رأيت إلى أي حد كانت
فارغة من قبلك ، لفهمت منزلتك مني ، ومكانتك عندي ، ولما
فكرت في أن تفارقني ..

لكن نغمات صوتها الهادئة ، وحركة خطواتها المتوازنة على
حصى الطريق ، هاجت حنّقه وأثارت غيظه .. فصاح بها : إنه
في كرب وضيق ، وإن اشتهاها يورى ضلوعه ويلهب جوانحه ..
وهذا هو الفكر الثابت الواحد الذي يملكه ويعذبه .. وإنه في كل

آن ، وفي كل مكان ، في ظلمة الليل ، وفي وضوح النهار ، يراها ،
فيناديها ، ويمد ذراعيه إليها ، وقد عرف الآن الداء الإلهي ..

— إنني أستنشق جمال فكرك ووحى ذهنك وسمو روحك
وعزة نفسك ، استنشاق عطور جسمك . فإذا تكلمت خيل إلى أنني
أرى روحك ترفرف على شفتيك . فاروحك عندي إلا شذى جمالك ..
وكانت ميول القدماء كامنة في نفسي ، فنبهتها أنت وأيقظتها من
سباتها ، وإني لأشعر بأني أحبك بفطرة المتوحشين ! ..

فنظرت إليه في رقة ، ولم تجب . وفي تلك اللحظة رأيا أنواراً
وسمعا أناشيد محزنة تشق كبد الظلام دانية منهما ، ثم ظهر لهما رهبان
في مسوح سوداء ، كأنهم أشباح ، تدفعهم الرياح ، حاملين الصليب
أمامهم . . أولئك كانوا رهبان رحمت اليسوع ، مقتنعي الوجوه
بالخمر ، ممسكين بالمشاعل ، مرتلين المزامير ، حاملين جثة إلى المقبرة ،
على ما كانت قد جرت به العادة في إيطاليا ، من أن يكون موكب
الجنائز ليلاً مع احتشاث الخطا . وظهر الصليب والتابوت والرايات
على الميناء المقفر . فتحنى دى شارتر وتريز إلى جانب الحائط ليمكنا
من المرور ذلك الإعصار الجنائزي المؤلف من جمهور الرهبان المقتنعين
والغلمان المرتلين ، وفي وسطهم ، يجري معهم ، ذلك الميت الذي يزعج
الناس ، فلا يرضى عنه أحد في هذه الأرض عاشقة المسررات والملاذات ..

ومرَّ مجرى ذلك السيل الأسود ، والنساء المنتحبات يهرولن من
خلف التابوت المحمول على أكتاف أولئك الأشباح المتعلين نعالاً
من حديد ..

فتنهدت تریز ، وقالت :

— ترى .. فيم تعذيب أنفسنا في هذا الوجود ؟ ! ..

فكأنه لم يسمعها ، وعاد يقول ، في هدوء صوت :

— لم أكن شقياً قبل معرفتك ، فقد أحبت الحياة ، وربطتني

بها الأحلام والأوهام . ولذت لى منها الأشكال وروحها ، تلك

الظواهر التي تستهوى النفس وتطيّب الخاطر . وكانت مسرّتي أن

أرى وأن أحلم .. وتمتعت بكل شيء ، ولم أتلّق بشيء . وحملتني

أجنحة أهوائى دون أن يعترىها وهن . وطابت لى الأشياء كافة ،

فلم أرغب فى شيء ، بل طبت عن كل شيء نفساً . فإنما منشأ الألم

الرغبة . واليوم أدركت ذلك . وليست رغبتى عن ميل سوداوى ،

فقد كنت سعيداً قبل أن أعرف رغبتى . أجل . إني حصلت على

قليل ، لكنه كل ما كان ضرورياً ليجعلنى قانعاً بعيشى . أما الآن ،

فقد فقدته . فضروب الهناء والمسرات التي كنت أجدها فى صور

الحياة وفى تخيلات الفن ، والفرح العميق الذى كنت أشعر به

إذ أخلق بيديّ شكلاً يعبرّ بالمادة المموسة عن وحي الخاطر ... هذه

كلها قد سلبتني أنت إياها دون أن تدعى لي أى محل للأسف عليها .
وأراني لم أعد أرغب في حريتي ، أو في العودة إلى هدوء أيام خلت ! ..
وإنه ليلوح لي كأنني لم أعش قط حتى لقيتك . والآن إذ أستطيع أن
أعيش وأعرف معنى الحياة حقاً ، لا أجدني قادراً على العيش قريباً
منك أو بعيداً عنك . فأنا أشقى حظاً وأعثر جداً من أولئك
السائلين الذين رأيناهم على قارعة الطريق . . فلدى هؤلاء الهواء
الذي يستنشقونه ، أما أنا فليس لي ما أستشقه ، لأنك أنت نسيم
حياتي ، وأنت لست لي . . ومع ذلك فأنا مغتبط بأنني قد عرفتك ،
فهذا هو كل ما يعتدّ به في وجودي . . . ومنذ هنيهة حسبت أنني
أكرهك ، وكنت مخطئاً ، فإني أعبدك ، وإني أباركك لما سبيت
لي من ألم ، فإني أحب كل ما يأتيني منك على الإطلاق . .

وكانا يقتربان من الأشجار السوداء القائمة على مدخل جسر
« سان نيكولا » ، فبدت لهما على الضفة الأخرى من النهر الأراضى
القائمة التي لانهاية لها حزينة حزناً ضاعفته الظلمات . . فاما رأته عاد
هادئاً وادعاً ظنت أن عاطفة غرامه متأججة في مجرد خياله ، ولهذا
انطوت طي أقواله . . وحسبت أن أهواءه لم تكن إلا خيالاً وحلماً . .
وما كانت تتوقع مثل هذا التقهقر السريع ، فكادت ، لنجاتها من
الخطر الذي خافته ذلك الخوف الشديد ، يبلغ اليأس منها ! ..

فمدت إليه يدها بشجاعة أكثر من سابقتها ، وقالت :
— هلمّ ولنمهر عهد الصداقة بيننا ! وأرى الوقت متأخراً
فهيّا نعود . سر بنا إلى عربتي التي تركتها في ساحة « السنيوريا » ،
وسأكون دائماً كما كنت من قبل صديقتك الودود ..

لكنه أخذها نحو الريف ، على ضفة النهر التي كانت تزداد إقفاراً :
— كلا ، فلن أدعك تذهبين حتى أقول لك ما أريد . على أنني
لا أستطيع وصف ما يقوم بنفسى ، لأن الكلمات تعوزني فلا أجدها .
إني أحبك ! وأريدك ! وأتوق إلى معرفة أنك لى ! وأقسم لك
أننى لن أمضى ليلة أخرى في هول الشك ورعبه !

وأخذها بين ذراعيه ، وضّمّها إليه ، وألصق وجهه بوجهها ،
وحدّق تحديقاً شديداً في عينيها . من وراء حجابها الشفاف :
— يجب أن تحبيني ! أريد ذلك ! وقد أردته أنت أيضاً .
فقلولى إنك لى ، قولى ذلك ! ..

فتخلصت بلطف من حضنه ، وأجابت بصوت خافت
متردد حنون :

— لا أستطيع ! لا أستطيع ! وأنت ترى أنى معك صريحة
في الغاية .. لا أستطيع أن أكون عند إرادتك .
وتذكرت العاشق الغائب الذي ينتظرها ، فكررت قولها :

— لا أستطيع !

فقال عليها ، وساءل بتلهف وقلق نظرتها الزائغة المنكسرة :

— لماذا ؟ إنك تحبيننى ، فلماذا تسيئين إلىّ وتعذبيننى برفضك

أن تكونى لى ؟

وذهب يضمها إلى صدره ، وحاول أن يضع فيه وروحه على

شفتيها المحجبتين ، يقبلهما ...

وفى هذه المرة ، انسحبت منه بسرعة وعزمة ، وهى تقول :

— لا أستطيع !.. فلا تسألنى فى ذلك ، فلا أستطيع أن

أكون لك .

فارتعشت شفتاه ، واهتز جسمه ، فصاح :

— إن لك محباً تحبينه ، فلم تهزئين وتلعبين بى ؟

— أقسم أنى لم أفكر أبداً فى السخر منك أو العبث بك ،

وإذا كنت سأحب فى الدنيا إنساناً فلن يكون سواك .

لكنه لم يكن يسمعها ، وصرخ فيها :

— دعينى !.. دعينى !..

وفرّ نحو المزارع المظلمة ، وكان نهر الأرنو قد غمر شاطئيه

فأنشأ من الأرض المعشبة مستنقعات سكب عليها القمر ، الذى كان

يحجبه السحاب ، أضواءه المرتعشة ..

فسار في طريقه في هذه المستنقعات على التربة الميثاء ، سريع
الخطا ، مغمض العينين ، مهتاج الفؤاد . . .

فجزعت ، وصرخت ، وأهابت به تناديه . فلم يلتفت إليها أو يرد
عليها . ومضى لطيبته بثبات مخيف لا يلوى على شيء . . . فأهرعت
من خلفه تجري ، ترُضُ قدميها الأحجار ، وتثقل ثوبها المياه ، حتى
وصلت إليه ، وشدته نحوها قائلة :

— ماذا كنت ذاهباً لتفعل ؟ . .

فلما نظر إلى عينيها ، طالع فيهما الخوف الذي تملكها ، فقال :

— لا تخافي ، ولا تجزعي ، فقد ذهبت بغير وعي ، وثقي أني لم
أكن أريد الموت . أوه !.. ألا بالله ليطمئن قلبك وليسكن روعك ! .
نعم ، إنني فاقد الرجاء ، لكنني ساكن الجأش ، وقد هربت منك ،
فسامحيني ، بيد أني غير قادر على احتمال رؤيتك . لا ! إنني غير قادر ،
فأتوسل إليك أن تدعيني وشأني . . وداعاً ! .
فأجابته مضطربة خائفة :

— تعال ، وسنرى ما يمكن عمله . .

لكنه لبث صامتاً مغموماً ، فكررت قولها :

— هيا بنا ، هلم !

وأخذت بذراعه ، فأنعشته لمسة يدها الرقيقة ، فسألها :

— هل لك ... ؟

— لا أريد أن أفقدك .

— أتعديني ... ؟

— لا مناص ...

وبسمت قليلا ، برغم قلقها وانفعالها ، لفكرة أنه نجح هذا
النجاح العاجل في نيل مُنيته بفضل جنونه .. فسألها :
— غداً ؟ ...

فأجابت بحدة ، كمن تدفع بالفطرة عن نفسها :

— لا ! ليس غداً ! ..

— أراك لا تحييتني ، وقد ندمت على وعدك ..

— كلا ، لم أندم ، ولكن ...

فما زال يتصرّع لها ويتضرّع ، حتى نظرت إليه ملياً ، وزوت
وجهها ، وترددت ، ثم قالت بصوت أعزّ ما يكون خفوتاً :
— السبت !

في الساعة الرابعة من يوم السبت ذهبت تريز وفاق وعدّها إلى باب المقبرة الإنجليزية ، فلقيت دى شارتر ، عند سياجها . وكان جاداً مضطرباً ، ولم يتكلم إلا قليلاً ، ففرحت بأنه لم يبد لها حبوره... وسار بها خلف حيطان المقبرة ، إلى طريق ضيق تجهله ، وقرأت على لوحة : « شارع الفييرى » . وبعد ما سارا نحو خمسين خطوة ، وقف أمام دهلز مظلم ، وقال : « هنا » ! ..

فنظرت إليه بكآبة لا حدّ لها ، وقالت :

— أتريد أن أدخل ؟ ..

ولما رأت إصراره ، تبعته صامتة في ظلام الدهلز الرطب ، فاجتاز فناءً مُعشِباً ، في آخره بيت صغير ذو أعمدة ونوافذ ثلاث ، منقوشة واجهته العليا بصور المعز وبنات الغاب ، فأدار المفتاح في القفل ، فاستعصى ، وكان له صرير ، فغمغم قائلاً « صدىء ! .. » فأجابت غير واعية : « كل المفاتيح في هذه البلاد صِدْءة » ! ..

وصعدا سائماً مخيماً عليه السكون ، ففتح باب حجرة أدخل تريز إليها . فذهبت تَوّاً ، دون أن تلقى على محتوياتها نظرة ، إلى النافذة المطلة على المقبرة . وكانت تعلو الجدار رؤوس أشجار الصنوبر

التي لا تعد خاصة بالمدافن في تلك البلاد حيث يمتزج الحداد بالفرح
من غير أن يعكر صفوه ، وحيث يمتد التلذذ بالحياة حتى إلى العشب
النابت فوق القبور . . .

فأمسك بيدها ، وسار بها إلى مقعد كبير ، فظلت واقفة تتأمل
الحجرة التي نسَّقها على وجه لا تشعر معه بأنها غريبة عن بيتها ، أو
أنها امرأة مخاطرة مغامرة . وكان قد ثبتت بالحائط بعض قطع من
قماش هندي قديم ، عليها رسوم هزلية تمثل مسرات الزمن الخالي .
وهناك مقعد مريح وكراسي بيضاء . وعلى منضدة بضعة كوؤوس
ملونة وأقداح فينيسية . وكانت في جميع الأركان حواجز (براقانات)
من الورق الملون ، عليها رسوم وجوه مستعارة وتصاوير مضحكة
وحظائر أغنام ، تلك الأشكال التي تمثل ما كانت عليه مدائن
فلورنسا وبولونيه والبندقية ، في عهد كبار الأمراء ، من نفسية
مرحة جذلي ..

ولحظت أنه قد غنى بإخفاء السرير وراء أحد تلك البراقانات
البديعة رسومها ، وكان كل ما هناك أيضاً مرآة وسجادة . . فأغلق
النافذة ، وأوقد النار ، وأخذ يديها فقبلهما ، وشخص إليها
بإعجاب ، يتنازعه الخوف والفخر ، ثم انحنى فلثم طرف حذاءها . .
فصاحت فيه :

— ما ذا تفعل ؟ ..

فأجابها :

— أقبلُ القدمين اللتين جاءتا بك إلى ! ..

ونفض ، وضمَّها إليه برقة ، والتمس شفيتها ، ثم طبع قبلة
طويلة على ثغرها .. فلبثت ساكنة ، لا حراك بها ، ناكسة الرأس ،
مغمضة العينين .. وانزلت قبعتها ، وانسدل شعرها ...
لقد وهبت نفسها ، واستسلمت بغير دفاع .

ذهبت ، بعد ظهر اليوم التالي ، إلى « سان ماركو » حيث كان
 دى شارتر فى انتظارها ، مدفوعة إليه بالحنين والخوف من العودة
 إلى لقائه على عجل كذلك . وأخذ كرها وسكن ألمها شعور جديد
 بلذة عميقة وعذوبة فائقة . ولم تعد إليها تلك الغشية التى ألّمت بها
 أول مرّة ، تلك الرؤيا المفاجئة ، رؤيا ما لا يمكن تلافيه أو إصلاحه ،
 عند ما أسامت نفسها شغفًا وهيامًا مذعنة للحب إذعانًا . . وكانت
 منهوكة خائرة ، قلقه حائرة ، وإن لم تكن خجلة مستنكفة ، ولا نادمة
 متأسفة . ولم تكن فى فعل ما فعلت مندفعة بمحض إرادتها ، بقدر
 ما كانت مطيعة قوة أعلى من قوتها . ولا شك فى أنها أساءت
 باستسلامها ، فى حين كانت غير حرة القياد . ولعلها زعمت أنها لم تكن
 لديه ، لدى دى شارتر ، إلا ميلًا طارئًا وقتيًّا ، وإن كان خالصًا قويًّا .
 فهى لم تعرفه . لم تكن عرفت تلك التخيلات البديعة المحلّقة ، التى
 هى فى الخير ، كما هى فى الشر ، أعلى وأسمى من المستوى العادى .
 ولو حدث أنه هجرها فجأة واختفى ، لما عتبت عليه أو وصمته بسوء
 القصد ، أو أن هذا على الأقل كان معتقدها ، بل لعلها كانت تحفظ له
 فى نفسها ذكرى ما يُعدُّ أندر وأثمن ما فى الوجود . فقد يكون

صاحبها غير أهل لعلاقة وثيقة ، علاقة حب مقيم ثابت ، وحسب
أنه أحبها ، وقد أحبها ساعة من دهره ، ثم انتهى . فإنها لم تجرؤ
على أن تؤمل أكثر من ذلك وهي واقعة في ورطة الموقف الكاذب
الزائف الذي انتهكت فيه حرمة كبريائها وسلامة نيتها ، كما تكدر به
صفو فكرها وزكاتها .

وبينا كانت المركبة سائرة بها إلى « سان ماركو » تعلّلت بأنه
لن يشير في حديثه معها إلى ما وقع بالأمس ، كما أن ذكرى تلك
الغرفة المطلة على أشجار الصنوبر الزمردية العالية لن تكون بالنسبة
لكليهما إلا حلم الحالم في الكرى أو خلسة المختلس ! ..

مدَّ إليها يده وهي تنزل من العربة ، فرأت في نظرتة ، قبل
أن يتكلم ، أنه يهواها ، وأنه ما زال يريد لها ، وكذلك أحسَّت في
الوقت نفسه أنها أيضاً تريده ! .. قال :

— أنت ! أنت ! . أحقاً هي أنت ! .. لقد كنت هنا ،
منذ الظهر ، منتظراً ، عالماً بأنك لما تأتي بعد ، ولكنني كنت شاعراً
بأنني لا أستطيع العيش بعيداً عن المكان الذي أتوقع فيه رؤيتك . .
ها أنت ، أنت ذى ! .. ناشدتك الله أن تتكلمى لى أراك
وكى أسمعك ! ..

— أفلا تزال تحبني ؟

— إنه الآن إذ أحبك ! .. فقد زعمت أنني أحبيتك إذ لم
تكوني إلا شبحاً متبوعاً باشتهائي ، وخيلاً في أثره أهوائى . . . والآن
أراك الجسم الذى فيه روحى . أحقاً ؟ ! قولى ! .. أحقاً أنك لى
وخاصتى ؟ . وماذا فعلت لأتملك أبهى نساء العالمين ؟ ثم يحسب
غيرى من الرجال الذين يغطون سطح الغبراء أنفسهم أحياء ؟ !
إننى وحدى الذى يحيا ويعيش ! .. قولى ماذا فعلت لأتملكك
وأفوز بك ؟

— أوه ! . أنا التى فعلت ! . وإذ قد جئنا إلى هذا فأصارعك
القول بأن الذنب ذنبى . واعلم أن النساء لا يعترفن به دوماً ، لكنه
ذنبهن دوماً . لذلك مهما يحدث فلن أعتب عليك ولن ألومك .

— أتذكرين ذات مساء ، فى فصل الشتاء ، إذ التقيت وإياك
على الجسر الصغير القائم فوق أخدود تجاه متحف « جوميه » ؟
فصحبتك حتى ذلك الشارع الصغير المنمق الجانبين بالرياض ، المؤدى
إلى رصفة « دويلى » ، ثم وقفنا هنيهة قبل أن نفرق عند حافة السياج
الممتدة على طوله الأشجار ، فنظرت إلى الأشجار التى أذبل الشتاء
أعوادها وأذوى أغصانها ، فوقفت بعد ما ذهبت ، ونظرت
إليها طويلاً . . .

— وماذا استطعت أن تراه في معجباً لك في ذلك اليوم الذي
كاد يكون حالكا ؟

— رأيتك سائرة . وبالحركات تتكلم الأشكال . وباحت لي
كل خطوة من خطواتك بأسرار جمالك المنسجم الفاتن . ألا إن
مخيلتي فيما يتصل بك لم تقف قط عند حد محدود من تعقل أو حذر .
نعم ، إنني لم أجروء على مخاطبتك ، وملأني منظرك رهبة ، وأوجست
خيفة أمام التي كان يسعها أن تفعل لي كل شيء . ففي حضرتك
عبدتك مرتعداً فرقاً ، وفي غيبتك شعرت بكل فجور الاشتهااء . . .
إيه يا تريز ! .. إنني لا أحتمل أن يفلت مني أى جزء منك .
إنني أتألم لفكرة أنك لست عائشة فيّ ، ولي وحدي . إنني أريد
أن أتملكك ، وأتملك بكليتك حتى في ماضى أيامك ! ..

فرفعت إليه عينيها الشبيهتي الحدقتين بتلك السماء الرائعة التي
تمتزج على صفحتها الشمس الساطعة والغيث المنهمر . . . وقالت :
— خير ! .. وأستطيع أن أقول لك إنني لا أشعر قط بالحياة
إلا وأنا معك . . .

ولما عادت إلى فيزول وجدت خطاباً قصيراً من صاحبها
لومني كلّه تهديد ووعيد . يقول فيه إنه لم يقدر أن يفهم معنى

لغيابها المطوّل ، أو سكوتها . فإذا لم تحدّد له حالاً يوم عودتها ،
أتى للقاءها بفلورنسا . . .

فقرأت الخطاب بغير دهشة البتّة . ولو أنها جزعت لوقوع
ما كان منظوراً ، وحدوث ما كانت تخشاه وليس منه مفرّ .

على أنه لا يزال في وسعها أن تهدئه وتطمئنه . وما كان عليها
إلا أن تكتب إليه بأنها تحبه ، وأنها عائدة إلى باريس على جناح
السرعة ، وأنه يجب أن ينبذ هذه الفكرة الحمقاء ، فكرة لقاءها
بفلورنسا التي ليست إلا قرية لا يلبث أن يُعرف فيها . . لكن كان
عليها أن تكتب إليه : « إني أحبك » ! . . كان عليها أن تطيب
خاطره بعبارات التمليق والمودة ، وتحدّر أعصابه وتثبط عزيمته بكلمات
التعزيز والمحبة . . فلم تجد من نفسها شجاعة . وتركته يحزر الحقيقة .
واتهمت نفسها بنفسها بعبارات غامضة ، وكتبت إليه كلاماً مبهماً
عن النفوس التي تحملها أمواج الحياة بعيداً ، وعن عجز الإنسان عن
المقاومة في محيط الدهر الحوّل القلب . . وسألته في حزن ولين أن
يحفظ لها ذكراً طيباً في ركن صغير من فؤاده . . . وحملت الرسالة
بنفسها إلى صندوق البريد ، وألقته ، فانتفضت في سلام المساء
وهدوئه كما ينفذ الماء العصفور ، إذ أدركت عندئذ ، وعندئذ فقط ،
حقيقة ما صنعت ، وما قد يؤدي إليه صنعها . . .

تغلغلت تريز تحت الحماثل ، في ثياب رمادية قائمة ، وكانت
النجوم الفضية تساقطت من أشجار الحناء الحمراء ، ونثرت الغار
على سفوح الروابي أزاهيرها ذات الشذى الذكي واللون الناري ..
وكان الوادي الفلورنسي كله مفروشا بيساط من الورد .

وجاءت الشاعرة ثقيان بل في ثياب بيضاء إلى الحديقة التي
تنطف عطراً ، وقالت : « ها قد رأيت يا عزيزة أن فلورنسا هي في
الواقع مدينة الزهر .. ولم يكن عبثاً أن تتخذ « الزنبقة الحمراء » رمزاً
لها وشعاراً ... واليوم يا عزيزة أول يوم مايو ، عيد الزهور ...
أو لم تستيقظي هذا الصباح في أرض الأحلام ؟ .. أفلا تشعرين
بأنك فرحة جذلة أنت يا من تحبين الأزهار ؟ .. إني أعلم أنك
تحيينها ، وتشعرين بالعطف عليها ، وقد قلت لي مرة إنها تحس
الفرح والحزن ، وتألم مثلنا سواء بسواء ..

وكانت تريز تسمع دون أن تعي ... وعركت في قفازيها
خطاباً كان قد أتاها ساعتئذ ، وعليه طابع البريد الإيطالي ، وليس به
غير سطرين :

[نزلت الليلة في فندق لاجراندي بريطانيا . بلونجارنو أنشباولي .
وإني منتظر لك صباح الغد . الفقرة رقم ١٨]

ودفعت باب الحديقة ، وأسرعت فقفزت إلى أول عربة
صادقتها ، وكان الحوذى قد وشع بالزهر قبعته ومقبض سوطه .
قالت :

— فندق لاجراند بريطانيا . . لو نجارنو أتشياؤلى ! . .
إنها كانت تعرف أين هو رصيف النهر ، ذاك الذى ذهبت إليه
فى أحد الأمساء ، ورأت بعين بصيرتها ألواح الذهب تمزقها الشمس
على غطاء النهر الخفاق . . . ثم دخول الليل ، وخرير المياه المبهم فى
ذلك السكون الشامل ، وذكرت الأقوال والنظرات التى هاجتها ، كما
ذكرت قبلة العاشق الأولى التى كانت فاتحة غرام لا يمكن تلافيه . .
. . . فندق « لاجراند بريطانيا » ! . . إنها تعرفه : نزلًا ذا
واجهة حجرية على الميناء . . أما وقد وجب حضوره ، فإن من سعد
الطالع نزوله بهذا الفندق ، وإلا فقد كان يمكن أن يقصد فندق
« دى لا قيل » بميدان « منان » حيث يقيم دى شارتر . . وكذلك
من حسن الحظ أن غرفتيهما ليستا متلاصقتين فى ممشى واحد ! . .
لوجارنو أتشياؤلى ! . .

وتلك الجثة التى شاهدها تمر بسرعة ، يحملها الرهبان المقنعون ،
قد ثوت الآن واستراحت ، فى جهة ما ، من حديقة مقبرة صغيرة
مزهرة . . .

وكانت حجرة نزل مجردة ، بها موقد على الطراز الإيطالي . وقد
نظمت على المنضدة عدة كاملة من فرشاة الرسم ، وإلى جانبها دليل
سكة الحديد .. وما من كتاب أو جريدة ! ..
وكان هناك ...

فقرأت ما ارتسم على وجهه النحيل من سطور الألم المبرح
وعوارض الحمى ، فانتابها من ذلك ضيق ... ولبت ينتظر كلمة ،
أو إشارة ، لكنها ظلت لا تجرؤ على شيء ، كأنها غريبة عنه ...
فقدم إليها مقعداً أبعدته جانباً ، وظلت واقفة . فقال :

— تريز! .. إن وراء الأكمة ما وراءها .. فتكلمى ! ..

فأجابت بتردد مومج ، بعد لحظة سكوت :

— سبحان الله ! .. ولم رحلت عن باريس لما كنت فيها ؟ ..

فجعلته نعمة الحزن التي في صوتها يعتقد ، وأراد أن يعتقد ، أنها

تعتب عليه عتب المحبة .. فتورد وجهه ، وأجاب بحمئة :

— ياليتنى كنت حزرت ! .. وأنت تعرفين مبلغ عدم اكترائي

بتلك الجماعة المتصيِّدة ! .. لكنك أنت ... وخطابك المؤرخ ٢٧

(كانت له موهبة حفظ تواريخ الأيام ! ..) إنه أوقعنى في قلق

مروع ، فقد جدّ عند ما كتبته أمر من الأمور ، فأخبرني بكل شيء ..

— حسبت يا صديق أنك لم تعد تحبني ..

— والآن وقد عرفت ما ينفي ذلك ؟ ..

وكانت مرتحية الذراعين ، مشتبكة اليدين ، فقالت : بهدوء

مصطنع :

— رباه ! .. لقد قامت علاقتنا على جهالة ، فيا ويح الإنسان !

ما أجهله ! .. إنك في ريعان شبابك أنضرتني عوداً ، ولديك
بلا شك مشاريع لمستقبل حياتك ... فالأولى أن أختفي ، وأذهب

عن طريقك ، وسيحمل كل منا لصاحبه طيب الذكرى ..

ومدت إليه يدها في قفازها ، فشبك ذراعيه على صدره ، وقال :

— فأنت على ذلك لا تريدني ؟ .. وتحسبن أنك ، بعد

أن جعلتني أسعد رجل في الدنيا عرف معنى السعادة ، تستطيعين أن

تضعيني جانباً ، وينتهي بذلك كل شيء ؟ ! .. أحقاً تحسبن أنك

قد انتهيت مني ؟ ! .. وماذا الذي أتيت تقولينه لي ؟ ؟ .. أن قد

انقطعت علاقتنا ؟ .. وأن قد وصلت ثم هجرت ؟ .. لا بأس ! ..

وهأنذا أقول لك : كلا ! .. إنك لست من نوع النساء الذي يفترق

منه الإنسان .. أنت ! ..

— نعم ، يجوز أنك أحببتني حباً أقوى مما جرت به العادة

في مثل هذه الأحوال ، فكنت لك أكثر من سلوى وملهى ..

لكن ماذا يكون رأى لو أنى لم أكن المرأة التى زعمتى ؟ .. لو أنى
كنت عابثة خدعتك ، ونكثت عهدك ؟ .. نعم ! .. فماذا يكون
لو أنى لم أكن معك ما كان ينبغى أن أكون ؟ .. لنفرض أنى
لما كنت لك استسلمت إلى جاذبيات وتعلقت بأميال آخر ؟ ..
أحسب عواطفى لم تخلق للجد ..
فقاطعها بقوله :

— تكذابين ! ..

— أجل ، إنى أكذب ، ولا أحسن الكذب .. أردت
أن أتلف ماضينا ، فكنت مخطئة ، فهو الذى تعرفه .. ولكنى
قلت لك إنى لست مستوثقة دائماً من ذات نفسى .. فإن هناك
كما يقولون نساء هن سيدات مشاعرهن ، وأمرهن بين أيديهن ،
وقد أندرته أنى لست مثلهن ، فلست ممن يضمن عواطفهن ..
فلوئى عنقه يمنة ويسرة ، كحيوان هيج هاجه ، وما إن يزال
يتحفز للوثوب ، وقال :

— ما قصدك ؟ .. أفصحى عما فى ضميرك ، فإن فيما بيننا شيئاً
لا أعرفه ، لكننى مصرّ على معرفته ، فما هو ؟

— قلت لك يا صديق إنى لست بالمرأة الواثقة من نفسها ..
فما كان لك قط أن تعتمد علىّ أو تركز إلىّ .. لا .. إنى لم أعدك

بشيء... وعلى فرض أنني كنت قد وعدتك ، فما قيمة الألفاظ؟ ..
— أراك لم تعودى تحبيننى . أوّاه ! . أرى جليلاً أنك زهدت
في حبي . لكن سوءاً لك ، فالعبن عليك ! إني أحبك . وما كان لك
وقد وهبتنى نفسك ، أن تؤملى استرداد هبتك ، إني مستهام بك ،
وإني لحفيظ عليك ... إذن فقد زعمت أن في إمكانك تسوية الأمر
في سكون والتخلص مني بسهولة ؟ ..

ألا فأصغى إلىّ قليلاً . لقد بذلت ما في وسعك كما أحبك
وأهيم بك ولا أستطيع العيش من دونك . ولقد عرفنا معاً مسرات
الحب التي لا يتصورها عقل أو يحيط بها فكر . فلم ترفض نصيبيك
منها ، بل تمتعت به ونحن في عالم من اللب المخلوب والعقل المسلوب .
ولم أنلك قسر إرادتك ، بل عن طيبة خاطرك . ومنذ ستة أسابيع لم
تكونى تطلبين خيراً مما كنت فيه . وكنت لي كل شيء كما كنت
لك كل شيء . ومررت بنا لحظات امتزجت فيها روحانا واختلطت فيها
نفسانا ، حتى لم نعد نعرف إذا كنت أنا أنت أو أنت أنا ...

ثم يبدو لك فتأتين تسأليننى على غرة منى أن أنساك وأتجاهلك
وأعدك غريبة عني لا تجمع بيننا إلا محض معرفة ؟ ! الله ! الله !
ما أجهل ثبات جنانك ! . أنت يا هذه ! .. يا أيتها الأخاذة النبّادة ! .
خبريني ! أكنتُ حالمًا ؟ قبلاتك ! . أنفاسك التي كانت على عنقي ! ..

صيححاتك؟ .. ألم تكن تلك إذن حقائق؟! تكلمى! .. رُدّى على
الجواب! .. اخترعتُ ذلك كله باطلاً وتوهمته؟! أجل . ليس شك
في أنك أحببتنى ، وإننى لا أزال أشعر بغرامك لاصقاً بكيانى آخذاً
بجنانى .. فلا ضير! .. إننى لم أغير ولم أتبدل خلقاً آخر . إننى الرجل
الذى كسّته . وليس لديك ما تؤاخذينى به ، فلم أخنك قط مع امرأة
غيرك ، وليس الفضل فى ذلك لى ، فما كنت لأقدر على الخيانة ، لأن
الذى يعرفك لا يرى أجمل النساء بالقياس إليك إلا تافهة . ولم تخطر
أصلاً على بالى فكرة خديعتك ، ولقد سلكت معك دائماً مسلك
الرجل الشريف . فليت شعرى! .. كيف انصرفت عن حبي؟ وما
صدّك عني؟ .. أجيبينى! .. بربك تكلمى! قولى إنك ما زلت على
محبتى! قولى ذلك ما دام حقاً وصدقاً . تعالى إلى تعالى! ..
ثم ألقى بنفسه عليها بشوق وحرارة ، وطوقها بذراعيه الشرهتين
القويتين .. فدفعته عنها فى برود ، وعيناها مملوءتان بالذعر . ففهم ،
وتوقف ، وقال :

— إن لك عاشقاً :

فأطرقت فى بطاء ، ثم رفعت رأسها فى وقار وصمت .
فذهب يضربها فى صدرها وكتفها ، ويلطمها على وجهها ..
وما لبث أن تراجع خجلاً ، وأطرق لا ينبس بكلمة .

ووضع أصابعه بين شفتيه يقرض أظافره . فلاحظ أن ييده خدشاً
من دبوس في مشد وسطها أدمائها . فألقى بنفسه على مقعد ، وأخرج
منديله يضمده جرحه ، وظل كأنه غير مكترث ، وكأنه فاقد الحواس .
أما هي فقد استندت إلى الباب ، شاحبة اللون ، رافعة الرأس ،
زائغة البصر ، تحل نقابها الممزق ، وتعيد وضع قبعتها بالاعتناء
الغريزي في بنات حواء . وعند ما سمع حفيف ثيابها الخفيف ، ذلك
الخفيف الذي كان إلى عهد قريب يلذه سماعه ، أجفل ، وحدجها
بنظره مرتعداً ، وارتدّها هائجاً محتدّاً ، يسألها :

— من يكون ؟ أريد أن أعرفه !

فلم تحرك ساكناً ، وظهرت على محياها الناصع علامة ملتبهة من
أثر اللكمة التي أصابتها . وأجابت في رقة وحزم :

— لقد أخبرتك بكل ما يسعني أن أخبرك به . . فلا تكثر
من سؤالي ، لأنه يكون عبثاً لا يجدي نفعا .

فنظر إليها نظرة قاسية ، لم تر منه مثلها من قبل ، وقال :

— لا حاجة لأن تخبريني باسمه ، فلن تصعب علي معرفته .

فلبثت صامتة ، مغتمة ، قلقة على سواه . . وملء نفسها كرب
ورعب ، لا أسف معهما ولا مرارة ولا أسى ، فقد كان فؤادها في غير
ذلك المكان . . .

وبدا عليه كأنه يشعر شعوراً خفياً بما يخالجهما . . ولما رآها بالغة
هذا المبلغ من الملاحاة والصفاء ، لما رآها هكذا جميلة ، لكن لا كما
عرفها ، لأن جمالها لم يعد له ، وإنما لسواه ، استخفته طيرة الغضب ،
وشعر في وطيس غضبه بالرغبة في قتلها ، فصرخ فيها :

— اذهبي ! اذهبي !

ثم غلبته على أمره عاطفة ذلك البغض الذي كان خارجاً على طبعه ،
فاعتمد رأسه بيديه ، وظل يبكي ويصعد الزفرات من كبده حرى . .
فأثّر فيها هذا الحزن ، ومدّ لها في أمل أن تهدئه وتروّح عنه وتخفف
من وطأة فراقها ، فيكون أقلّ إيلاًماً . وخيل إليها أنها قد تجد سبيلاً
إلى عزائه عن فقدتها ، فجلست إلى جانبه آمنة متوددة ، وقالت :

— لك علىّ يا صديقي الملامة ، فإنني جديرة بها ، وإن كنتُ
بالشفقة أجدر . فاحتقرني إذا شئت ، وإذا كان في مكنة امرئ أن
يحتقر مخلوقة شقية تعدُّ العوبة في يد القدر . . ثم احكم علىّ بما تشاء . .
لكن احتفظ لي في سورة غضبك بشيء من الصداقة ، ودعني
أكون ذكرى حلوة مرة كأيام الخريف التي تكون فيها الشمس
ساطعة وريح الشمال عاصفة . هذا ما أستحقه . فلا تكن صلباً مع
الزائرة الخفيفة الطائشة التي عبرت سبيل حياتك ، وودّعني كما لو
ودعت امرأة راحلة إلى حيث لا تعلم ولا تدري وهي حزينة . . فليس

أحرَّ من يوم الفراق . وقد كنت الساعة غاضباً مني ، ولست أعتب عليك في ذلك ، ولكن غضبك آلمني ، فأظهر لي من الشفقة شيئاً . . فمن يدرى ؟! إن المستقبل مجهول أبداً ، وهو أمامي مظلم غامض ، فهبيء لي سبيل أن أقول لنفسى إننى كنت معك طيبة القلب سليمة القصد صريحة القول ، وإنك لم تنسنى ، وسوف يهبيء لك الزمن أسباب الفهم والصفح . أما اليوم فخنايك . . كن رحيماً ! . .
أما هو فلم يكن مصغياً لها ، إلا أن نعمة صوتها العذبة الرخيمة وحدها سكنت من حدته وكسرت من شرته ، فقال منفزعاً :
— إنك لا تحبينه ! ولكن أنا الذى تحبين ! وعلى ذلك ؟ . .

فترددت ، ثم غمرت :

— والهف نفسى ! . . ليس باليسير على المرأة أن تقول من ذا الذى تحبه ومن ذا الذى لا تحبه . . أو على الأقل ليس هو على هيناً ، فما أعرف حال الأخريات . . وأرى الحياة غير رحيمة ، فيها تُقذف وتُدفع ، كالكرة ، فتخبَّط . .

— تريز ! . . إنك لا تحبينه ! . . أليس كذلك ؟ . لقد كانت غاطلة ، لحظة نسيان . . شئ مروع أخرج فعلته ضعفاً ودهشاً ، وربما كان نكايه وكيداً . إنك ما كنت إلا أسيرة فتنة ، وأخيدة محنة ! . . فأقسمى أنك لن تريه مرة أخرى . . أقسمى ! . .

وأمسك بذراعها .. فلزمت الصمت ، وصرت على أسنانها ،
واكد وجهها ، وهو يلوى ذراعها ، حتى صرخت ألماً .. فلم يكف
عنها ، وجرها حتى المنضدة ، وقال : « اكتبى ما أمليه عليك ، لأبعث
بالخطاب » .. فلما قاومته ، قهرها على الجثو على ركبتها ، فقالت فى
سكون وعزّة :

— لا أقدر ! لا أريد ! ..

— ولماذا ؟ ..

— لأننى .. أتريد أن تعرف ؟ .. لأننى أحبه ! ..

فأفلت ذراعها ، ولو أن مسدسه كان فى متناول يده ، فرجما كان
أرداها قتيلة ، لكن سخطه ما عثم أن تبدل حزناً ، فحار قانطاً آيساً ،
فودّ لو يضع لذات حياته حدّاً ..

— أتقولين حقاً ؟ .. أهذا ممكن ؟ .. أهذا صحيح ؟ .. أنت

تحيينه ! ؟ أنت تحيينه ! ؟ .. فما عنده ؟ ! وما هو حتى تعشقيه ؟ ! ..
إنى أراهن على أن عشيقك ليس بالرجل ذى المكانة .. أفتحسبين
أنه يجبك ؟ أهذا زعمك ؟ ألا ساء فالك ! فأنت مخطئة ، فهو
لا يجبك ، وسينبذك عند أول فرصة نبذ النواة ، وسيصدّ عنك حين
يجعلك مضغة فى الأفواه .. فتتمرغين وتدهورين بانتقالك كل يوم
فى شأن .. وسيقولون فىك العام المقبل : « إنها لا ترد يد لامس » ..

وهذا ما يسوءنى لأجل أيبك ، وهو صديقى . . وسيلبغه سلوكك ،
 فلا أمل لك فى أن تخدعيه . . هو . . .
 فأصغت مستخذية ، ولكن متعزية ، إذ فكرت فى مدى ما كان
 يصيبها من الألم لو أنها وجدت فى صاحبها هذا شهماً كريماً . . .
 أما هو فقد ازدراها حقاً ، ورفه عنه هذا الازدراء ، فعاد يسألها :
 كيف كان ذلك ! . . فهزت كتفيها بإشفاق ظاهر حتى لم يعد يجسر
 على الاسترسال فى نعمته . . فنظر إليها ، وهى تودعه ، وقد اغبرَّ
 وجهه من الحزن أكثر مما اغبر من الحقد ، ولم تر قط عينيه كما رأتهما
 وقتئذ جامدتين ذابلتين ، ولا صدغيه كما بصرت بهما غائرين ضامرين . .
 وكان يبدو عليه كأنه شاخ وهرم فى ساعة . . فلما رآها ، ويدها على
 مفتاح الباب ، وهى تقول ناظرة إليه عاطفة عليه : « وداعاً ! . .
 هوّن عليك ، إننى لا أستحق مثل هذه الحسرات » . . . وشعر أنه
 على وشك أن يفقدها ، وأنه لن يحظى بها بعد ، صرخ ووثب
 جزعاً ، ولم يعد يذكر شيئاً ، وإنما كان كل ما أحسّه ذلك الدوار
 الذى ينشأ عن مصاب عظيم ، أو عن خسارة لا تعوّض . وزين له
 الخبل ، فهمم بها ، يريد الخطوة مرة أخرى بالعشيقّة الراحلة التى
 لن تعود . . . فشدّها إليه ، بكل ما فى طبيعته الحيوانية من
 رغبة وقوة ، فذهبت تقاومه بكل قوى إرادتها الحاضرة الطليقة

اليقظة الحذرة ، وتلمّصت منه دون أن تستشعر أى خوف ، بعد
ما تشعّت شعرها وتمزّق ثوبها .. فأدرك أن كل محاولة لا نفع منها ،
وأنها لم تعد له ، لأنها صارت لسواه .. فارتدت عليه أوجاعه ،
فكال لها الشتائم جزافاً ، ورماها بكل سبة ، ثم دفع بها خارج
الغرفة .. ودفع الباب بشدة ..

شارع الفييرى ! ..

هاهى ذى قد عادت إلى البيت الصغير الذى يبدو فى سلامه
وسكونه وفيّاً لمن سكنه من العشاق منذ الأيام الخالية .. وأحست
أنها نجت من عالم مروع وحشى ، فكأنها جُمِلت خلال الأحقاب
إلى حيث لم يُعرف نكد العيش وبأساء الحياة ... وكان دى شارتر
فى انتظارها ، عند أول السلم المفروشة درجاته بالورد .. فارتمت بين
ذراعيه ، ولبثت فى حضنه مستسامة إليه غائبة عن الصواب ...
فحملها ، وهى ساكنة ، كأنها الغنيمة الثمينة التى غنمها من تلك المرأة
التي وقف مرة شاحباً مرتعشاً أمامها .. وذوقت ، وهى مغمضة العينين
قليلاً ، خضوع العاتية الشاعرة بأنها فريسته الجميلة ! .. أما تعبها ،
وحزنها ، ومكاره يومها ، وذكر عنيف مقاومتها ، وحرقتها المستردة ،
وحاجتها إلى النسيان ، وبعض أثر من خوف ما زال بها .. أما هذه

كلها فقد أذكت حنانها ، وأثارت عطفها ، فطوّقت بذراعها عنق حبيبها ، وهي مستلقية على ظهرها . . . ولما ثابا إلى رشدتهما ، كانا كطفلين ، في جذلهما وفرحهما ، يضحكان ويقولان عبثاً ويلعبان ، وهما يمتصان الليمون والبرتقال والبطيخ الموضوع بقربهما في صحاف مصوّرة بالألوان . .

ونظر إليها . . . فتورّد وجهها نفراً وفرحاً ببضاضة الجسم الذي تقدمه على هيكل الغرام . . . وأبانت شفتها المفتوحتان قليلاً عن لؤلؤ ثناياها ، فسألته في دَلٍّ إذا لم تكن قد خابت آماله فيها بعد كل أحلامه المضطربة بها . . وكانا في أضواء النهار التي أضعفها وخفضها بالاستائر التي وضعها ، فأمعن النظر فيها ، واستوعبها بكل ما في رجولته من فرح وحرارة وشغف ، ومزج بالقبليات إطراده جمالها ، وثنائه على حسنهما . . ثم جدّ بهما الأمر بغتة ، فأغمضت عيونهما ، والتصقت شفاههما ، تعبّداً لذلك الغضب القدسي الذي جعل الحب شبيهاً بالبغض . . وتماسكا . . وتمازجا . . وهويًا في هوة الهوى والهيام . . وكانت ملقاة الرأس على الوسادة ، محمولة الشعر عند ما فتحت عينيها المغرورتين ، وافترّ ثغرها عن ابتسامة حلوة ، ابتسامة من تقعت غلتها ، وبرئت من علتها ! . .

فسألها : من أين تلك العلامة الصغيرة الحمراء التي على صدغها ،

أثر لطمه صاحبها المهجور... فأجابت بأنها لا تعرف، وليست
شيئاً.. وتكاد هذه لا تكون كذبة منها، لأنها في الحق لا تعرف..
لقد نسيت!.. وذكرنا حكايتهما الهنيئة القصيرة، على أنها شغلت
كل حياتهما، لأن حياتهما بدأت من يوم لقاءهما الأول، فقالت:
— أتذكر يوم كنا على المشرف غداة وصولك، وحدثتني
بكلام متقطع غامض، فخررت أنك أحببتني!..
— خشيت أن تكوني حسبتني غيباً عيباً!..
— لقد كنت كذلك هو نأماً.. لكن ذلك كان انتصارى..
فإني كنت بدأت أتبرم بتحفظك ورزانتك في حضرتي، وقد أحبتك
قبل أن تحبني، ولست من هذا خجولاً!..
فصب بين ثناياها قطرة من النبيذ اللؤلؤى المزبد... وختم
على ثغرها بقبلة ثقيلة... ولما تابت إلى رشدها، منهوكة القوى،
من فرط الفرح والضيء، صاحت به:
— نعم، إني أحبك!.. نعم، ولم أحب أحداً سواك!..

كتب إليها لومنيلا :

[أسافر غداً في الساعة مساءً ، فأجرك في المحطة ..]

فذهبت . فرأته واقفاً هادئاً وادعماً ، فاكتفى بأن قال لها :

« آه ! .. أنت هنا ؟ » .. فقالت : « لكنك أنت يا صديقي الذي طلبت مني المجيء ! » .. ولم يكن ليعترف بأنه كتب خطابه مؤملاً باطلاً أنها قد تعود فتجبه ، وأن ما بقي ينسى ويمحى ، وأنه قد يسمعها تقول له : « تلك كانت تجربة ! » .. أجل لو أنها خاطبته بمثل هذا لصدقها من فوره ، لكن صمتها أياسه ، فقال في جفاء :

— ما وراءك ؟ .. عليك أنت أن تتكلمي لا على ! فليس عندي

خيانة أعتذر عنها أو أتبرأ منها !

— لا تكن قاسياً أيها الصديق ، ولا تكن جاحداً حق الماضي ،

وهذا ما عندي لك من القول ، وأريد أن أقول لك أيضاً إنني أفارقك بحزن صديقة وفية .

— أهذا كل شيء ؟ اذهبي فأعيديه على مسمع من الآخر ..

فذلك يلذه أكثر مما يلذني ، ويستميله أكثر مما يستميلني .

— لقد دعوتني فجئت ، فلا تجعلني أندم على ما فعلت .

— آسف لأننى أزججتك ، ولا شك فى أنه كان فى إمكانك أن
تشغلى يومك بخير من هذا ، ولست أستبقيك أو أمنعك ، فذهبي إلى
لقائه ، فإنى أراك تذوبين شوقاً إليه ! . فوداعاً أيتها السيدة !

وما إن طوى كشحه عنها حتى رأت تريز صاحبته مس بل
وخطيبها « الأمير البرتنلى » خارجين من محطة البضائع متجهين صوبها
وكانا قد جاءا فى طلب ناقوس قديم أوصت عليه الشاعرة لتضمه إلى
مجموعتها ، فسارت معهما .. وكانت تريز تقول فى نفسها وهى
مضطربة وجلة : « لقد شاهدها ، فهل عرفته مس بل ؟ .. ما أظن ! ..
فقد كاد المكان يكون مظلماً ، تفرقت فيه الأنوار الصغيرة التى
تأخذ بالأبصار .. وموضع التساؤل هو : « أتعرفه ؟ لست أذكر هل
رأته بمنزلى فى العام الماضى » .

وفى تلك الأثناء كان دى شارتر منتظراً وحده فى الحديقة ، فألفته
تريز متكئاً على الشرفة التى أحس فيها قلبه أول هزة من هزات
الحب .. وبينما مس بل والأمير البرتنلى يتخيران مكاناً يضعان فيه قبة
الجرس الجديد ، أخذ دى شارتر صاحبته لحظة تحت الحائل وقال لها :
— مع ذلك قد وعدتني بأن تكونى فى الحديقة فأجذك عند
وصولى ، وقد بقيت ساعة من الدهر حسبته أبدياً غير متناهية ، ولم
يكن لك أن تخرجى ، وقد أدهشنى وأياسنى غيابك ...

فأجابت جواباً مبهماً ، بأنها اضطرت للذهاب إلى المحطة ، وأن
مس بل عادت بها معها في عربتها . فاعتذر لها عما بدا من قلقه ،
لأن كل شيء أزعجه ، حتى هناءه أخافه وروعه ..

وجلسوا إلى المائدة .. وقال خطيب مس بل ، وكان قد أدرك
أنه يضايق تريز بالكلام عن لقاءها بصديق لها من باريس في محطة
فلورنسا ، أمام دي شارتر : « غفرانك ياسيدي لفلاح إيطالي مثلي
يخدع النفس بأنه أوتي شيئاً من التمييز الاجتماعي ، لكنني رأيت أن
السيد الذي كان يتحدث إليك لا بد أن يكون باريسياً . اطلعت
الإنجليزية ، ولأن تكلفه البرود الإنجليزي قد شف عن خفة
روح الفرنسي .. »

فقالت تريز بلا مبالاة :

— أوه ! إنني لم أره من زمن طويل ، وقد أدهشني كثيراً
لقاؤه في فلورنسا ساعة رحيله عنها ..

ونظرت إلى دي شارتر الذي ظهرت عليه الدهشة المحزنة ، وإن
كان قد تظاهر بعدم الإصغاء .. فقالت مس بل :

— لكنني أعرف هذا السيد ، فهو مسيو لوميل ، وقد جلست
مرتين بقربه على مائدة الكونتس .. فحدثني حديثاً مستطاباً ،
وأخبرني أنه يحب كرة القدم ، كما يحب الحيوانات حباً جماً ، فقصّ

على أنباء رحلاته للصيد والقنص ... وهو يعجب بالأرانب
عند ما ترقص على ضوء القمر في البرية .. فهل حدثك لومنييل
حديث الأرانب يا عزيزة ؟

فأجابت الكونتس بأنها لا تعرف ، وأنها تجد جميع الرياضيين
ثقلاء مضجرين . فاحتجت مس بل قائلة إنها لا تعتقد أن مسيو
لومنييل يمكن أن يضجر أحداً عند ما يصف رقص الأرانب ..
وأبدت أسفها على أن تريز لم تخبرها بأنه في فلورنسا ، فقد كانت تود ،
لو علمت ذلك ، أن تضيفه في فيزول .. وظل دي شارتر مكتئباً واجماً
بقية السهرة ، فلما هم بالانصراف ، ومدت إليه تريز يدها ، أحسّت
أنه تحاشى الضغط عليها .

في اليوم التالي ، وجدته في بيت شارع الفييري الصغير قلقاً مشغول
البال ، فحاولت ، بادئ ذي بدء ، أن تسليه بإفراطها في إظهار المرح ،
ومبالغتها في إبداء خضوع العاتية التي تهب نفسها وحنانها . لكنه
مع ذلك ظل مكتئباً ... وكان قد قضى سواد ليله يتأمل ، ويفكر ،
ويعمل على تكوين حزنه وضجره ، لأنه وجد أسباباً للألم . وأدرك
بثاقب فكره الصلة بين اليد التي ألقت الخطاب في صندوق البريد
أمام تمثال سان مارك وبين المجهول الأنيق الذي شوهد في محطة

سكة الحديد . وعلى ذلك يكون دى شارتر قد وجد لغمّه رسماً
ولألمه اسماً .

وكان جالساً على المقعد الكبير الذى أهده تيريز إليه وجلست
عليه يوم زيارتها السارة الأولى . ولبت ساكناً ، وقد دهشته
التصورات القائمة ، واكتنفته الخواطر المظلمة ، فى حين كانت تستند
إلى ذراعه ، وقد ألصقت به جسمها الدافئ ، وأحاطته بروحها المتيمة . .
وكانت فى غير حاجة إلى سؤاله عن أسباب حزنه ، لأنها تعرفها
حق المعرفة ، فحاولت أن توجه تيار أفكاره إلى ذكريات سعيدة ،
فذكرته أسراراً اشتملت عليها جذر الغرفة التى تحتوينهما ، وذكرته
جولاتهما فى أنحاء المدينة ، وأسرفت فى الإلطاف له والعطف
عليه ، وقالت :

— إنك غير معنىّ بى على قربى منك ، فقد أراك مشغولاً
بفكرة أجهلها . ولكنى على أى حال موجودة باقية ، وليست الفكرة
شيئاً . . .

— ليست الفكرة شيئاً ؟ ! أئحىل إليك ذلك ؟ إن فكرة ما قد
تجعل المرء سعيداً أو شقيماً ، وربما أماتته وربما أحيته ، ولذلك
أفكر . . فلم تسألينى فيم أفكر ؟ . . وأنت تعرفين أننى أفكر فيما
سمعت مساء أمس مما سترته منى وأخفيته عنى . أفكر فى اللقاء الذى

تمّ لك بالأمس في المحطة ، والذي ليست للمصادفة يد فيه . لكننا سبق إلى ترتيبه خطاب ، خطاب ألقى — أفتذكرين ؟ — في صندوق بريد سان ميكيل ؟ .. إنني لا ألومك ، فلا حق لي في لومك ، ولكن لماذا صرت إلى ما دمت غير خالية ؟ ..

— إذا كنت تعنى الشخص الذى لقيته في المحطة فأؤكد لك أن ليس لهذا اللقاء قيمة بتاتا ..

— تريز ! . أولم يحى هنا ليراك ؟ أولم تعرف أنه في فلورنسا ؟ أليس هو عندك غير رجل تلقينه في المجتمع وتستقبلينه في منزلك ؟ أولم يكن بسببه ، وفي غيبته ، قولك لي ونحن على شاطئ الأرنو : « لا أستطيع ! .. » ؟ أهو لا شىء عندك ؟

— إنه يزورنى أحيانا ، وثق أننى لا أجد فيه ما يستميلنى على الإطلاق ، فلا أقدر أن أتصور ما يمكن أن يكون عالقا بأوهامك .. وشعرت بضرب من المسرة وهى تجحد بهذا السياق معرفة الرجل الذى كان يدعى عليها ، بكل شدة وفضاظة ، حق الملكية ! . وسرعان ما عادت إلى الصديق ، فنظرت إلى حبيبها بعينها الدعجوين الثابتى النظرات التى فى بريقها معانى الانعطاف ، وقالت :

— إننى من اليوم الذى صرت فيه إليك صارت حياتى كلها خاصة بك ووفقاً عليك . وإذا كان يخامرك أدنى ريب أو يساورك

أى قلق فاسألنى . فإن لك الحاضر كله . وليس ثم سواك وحدك ،
فأنت من الحشاشة فى الصميم ! أما ماضىّ فلوعرفت إلى أى حد كان
فارغاً لا بتهجت . وإنى لأعتقد أنه ليس فى الدنيا امرأة خلقت للحب
مثلى كانت تستطيع أن تأتيك بروح أكثر جدّة من روحى ، أو
تزفّ إليك قلباً هو بمجامعه لك كقلبي . هذا ما أقسم عليه . وفى
خلال الأعوام التى سبقت معرفتى بك لم أذق للحياة طعماً . فلا تدعنا
نتكلم عنها أو نشير إليها . فلماذا يا حبيبي .. لماذا لم تأت إلّى من قبل ؟ .
وإنى ما سألتك شيئاً ، وما أردت معرفة شىء . ألم تركيف لم أجادل
فى أمر الأنسة چان تانكرید ؟ ذلك أنى رأيت أنك أحببتنى ، وأنك
قد عانيت ، وهذا يكفينى ، لأننى أحببتك ...

— لا تقدر المرأة أن تكون فى حالة الغيرة والرجل سواء . ولا
تقدر أن تشعر بما يسبب لنا نحن الرجال أشدّ تباريح الآلام .
— ما أدرى ! ولماذا ؟

— لماذا ؟ لأنه ليس فى دم المرأة ، ولا فى لحمها ، شهوة الملكية ،
تلك الشهوة السخيفة النبيلة معاً ، تلك الشهوة الطبيعية العريقة فى
القدم ، التى جعلها الرجل من حقوقه ، وحظ المرأة من قديم الأزل
أن تقتنى .. فهو الماضى ، الماضى القصوى المجهول الخفى الذى يتحكم فى
عواطفنا ، فنكون حين نولد كأننا بلغنا الكبر .. أما غيرة المرأة

فليست سوى تجريح كرامتها ، أما غيره الرجل فعذاب عميق ، فيه
كل ما في الألم المعنوي من حدة ، كما فيه كل ما في الألم الجسدي
من استمرار . . . أتسأليني لماذا ؟ . . . لأنه على خضوعي لك ،
واحترامي إياك ، وعلى الخوف الذي تسببته لي ، فأنت المادة وأنا
الفكر ، وأنت الجسم وأنا الروح ، وأنت الصلصال وأنا الخزاف . .
على أنه لا حق لك في الشكاية . فما قدر الخزاف الخشن الذليل بجانب
الزهريّة المستديرة المكحلة هامتها بالتيجان ؟ . . هي هادئة جميلة وهو
شقي بائس . هو يعاني ، ويرغب ، فيتعذب . . . لأن الرغبة هي
العذاب . نعم ، إني غيور . وأعرف ما غيرتي . فإذا حلتها وجدتها
مركبة من أحكام موروثّة مبتسرة : كبرياء وحشية ، وإحساس
مريض ، ومزيج من عنف أحمق وضعف قاس ، وتمرد أخرق أثيم
على سنن الحياة والكون . ولكن عبثاً أقف على حقيقتها العارية .
فهي كائنة ، وهي ترهقني من أمرى عسراً . . . وما مثلي إلا مثل
الكيميائي الذي يدرس خواص الحمض الذي شربه ، فيعرف بماذا
يمكن أن يمتزج ، وأية أملاح يمكن أن يكون ، بيد أن الحمض في
خلال ذلك يحرقه ، وسيحرقه حتى نخاع عظامه . .

— يالك حبيباً أبله ! . .

— نعم إني أبله ، وأشعر ببلهى أكثر مما تشعرين . فاشتهاه

امرأة في زهرة جمالها وذروة ذكائها ، سيدة ذاتها ، مالكة قياد
نفسها ، تفهم وتجسر ، وهي في فهمها وتجاسرها أحلى وأشهى ما تكون ،
امرأة تستطيع أن تختير بحرية وفي غير تقيّد ، وأن تختار بمعرفة ودقة
نظر — يكون اشتهاؤها وحبها لكل ما هي عليه ، والتألم لما ليس
فيها من سلامة نية الطفلة التي مع ذلك تهول المرء لو وجدها فيها ..
أقول إن اشتهاؤ امرأة هذا شأنها ، وسؤالها أن تكون في وقت
واحد نفسها وليست نفسها ، وعبادتها لما جعلتها الحياة له ، ثم
التأسف مرّ الأسف على أن الحياة التي جعلتها هكذا جميلة قد لمستها
بأن خلقتها .. آه ! إن هذا لبله شديد ! .. إني أحبك . أفتركين ؟ ..
إني أحبك بكل ما تحملين إليّ من مشاعر وعادات ، وكل ما يأتي
من تجاربيك ، وكل ما قد اكتسبته منه .. منهم .. من يدريني ؟ ..
إن في هذا لذتي ، وفيه تعذيبي . . . وهذا الذي من أجله أعاني وآلم ،
يا حبيبتي . . .

فجئت بين يديه ، وأخذت براحتيه ، وجذبتة إليها قائلة :
— إني لا أحتمل أن أراك متألماً ، ولا أريد ذلك . فهذا
جنون . . . إني أحبك ، ولم أحب أحداً سواك ، وفي رسعك أن
تصدقني . والله يعلم أنني لا أفترى عليك كذباً .
فقبلها في جبينها ، وقال :

— إذا كنت تخدعيني أيتها العزيزة فلا لوم عليك ولا تثريب.
بل لك المنّة والشكر. فأى شيء يمكن أن يكون أحلّ وأكثّر
إنسانية، وشرعاً وفرعاً، من خداع الحزن؟ واربابه... ماذا يصير
حالنا لو أن النساء لا يشفقن علينا فيكذبن؟... فاكذبى إذن
يا حبيبتي! اكذبى، إحساناً منك ورحمة!... امنحني الحلم الذي
يكشف ليل أحزاني! اكذبى في غير ما خوف أو تردد، فإنما أنت
لا تضيفين بالكذب إلّا وهماً آخر إلى وهم الحب والجمال... حقاً، إن
الحب يصون الجمال، وإن المرأة تتغذى بالإعزاز والملاطفة كما
تتغذى النحلة بالزهر...

— أقسم لك أننى لم أحب قط سواك. ألا إنه لا الملاطفة ولا
الإعزاز هما اللذان صاناهما هذا القليل من الجمال الذى أنا سعيدة به
لتقديمه إليك، فإنى أحبك، وبالحلف أعزّز حبي!
وختمت يمينها بقبلة طبعها على شفّتيه. على أنه عاد فتذكر
الخطاب الذى ألقتّه فى صندوق بريد سان ميكيل ورجل المحطة
المجهول، فقال:

— لو أحببتى حبّاً صفوّاً لما أحببت أحداً سواى.

فنهضت متبرّمة ساخطة تقول:

— أفتظنّ إذن أنى أحب غيرك؟! ألا إن ما ترمينى به هائل

فضيع . أذلك الذى تراه فى ، وتقول إنك تحبني ؟ . إليك ! . . . إننى
أرثى لك ، لأنك رجل مخبول ! . . .

— أحقاً أنى مخبول ؟ قولى ذلك ! . . . وكررى هذا القول

على سمعى . . .

فجئت ، وأخذت وجهه فى يديها الناعمتين ، وقالت له ثانية إنه
مجنون لتلك الأكدار كلها بسبب لقاء عادى لا يعتدُّ به ولا يؤبه
له . وحملته على تصديقها ، أو بالأحرى على النسيان . . .

فلم يعد يرى ، أو يعرف ، أو يشعر بغير هاتين اليدين الرقيقتين ،
وتينك الشفتين الملتهبتين ، وذلك الثغر الشره المشوق ، والنحر
الممتلىء ، وكل هذا الجسم الرائع الحسن المقدم إليه . . . وانصرفت
كل تفكيراته إلى فكرة واحدة : هى أن يتلاشى ويفنى فيها . . .
وزالت مرارة حزنه وغضبه ، وبقيت الرغبة الشديدة الملحة عليه
فى نسيانه كل شىء وإنسانها كل شىء كذلك ، بسقوطهما
معاً فى غشية أبدية . . . وكذلك هى ، نخسها القلق والاشتاء ،
وحرّضاها ، فأحست العاطفة الأزلية التى نفثها فيه ، بكل
قوتها وكل ضعفها جميعاً ، فأعطت حباً نظير حب ، فى هوس
لم تعرفه من قبل . . . وفى سعار غريزى ، وإرادة دفينية صماء تدفعها
إلى بذل أحسن وأكث مما بذلت فى أى وقت مضى . . . تجاسرت

على ما كانت تحسب في غير إمكانها التجاسر عليه .
وكانت الحجرة في أحضان ظل دافئ ، وأشعة الشمس الذهبية
الساقطة على أهداب السجوف تضيء سلالاً مملوءة من الشليك
موضوعة على الخوان بجانب زجاجة من نبيذ آستي . وكانت صور
المساخر المرسومة على « البراقان » المصنوعة في « بجرامو » و « فيرونا »
تجرد يول فرحها الصامت . . في حين كان يرى ، عند رأس السرير ،
ظل غادة فينيسية ارتسمت على شفتيها الذابلتين بسمة . . وهناك
وردة كبيرة نضرة تتساقط ورقة ورقة ، وكان الصمت يفوح حباً ،
وقد نهكت العواطف قوى العاشقين . ونامت على صدر حبيبها ،
وأطالت غفوتها الخفيفة تلذذها بالغرام . فلما فتحت عينيها قالت
مبتهجة : « أهواك ! . . » . وكان مستنداً بمرقعه إلى الوسادة ، ناظراً
إليها بكآبة خرساء . فسأله عن سبب حزنه : « إنك كنت سنعيداً
مغتطباً منذ هنيئة ، فلم لا أراك كذلك الآن ؟ . . » ، فhez رأسه
ولم ينبس . فقالت :

— عزمت عليك إلا ما قلت ! فإنني أؤثر أن أسمعك شاكياً
على أن أراك صامتاً . .

— أفتريد أن تعرفي ؟ ! فلا تغضبي إذن ! . إن حزني أشد
منه في أي وقت مضى ، ذلك إذ عرفتُ الآن ما يمكنك أن تمنحيه . . .

فابتعدت عنه بسرعة ، وامتلات عيناها ألماً وتوبيخاً ، ثم قالت :
— أيمكن أن يدور بخلدك أنني كنت يوماً لإنسان كما كنت
لك ؟ .. إنك تصيبنى وتخرجني في أرق مشاعري وأخلصها في حبي
لك . ولست أغفر لك ذلك ، فإني أحبك ، ولم أحب غيرك ، وأنت
وحدك الذي جعلتني آلم . فأسعد واهناً ، فقد أصابني منك شرٌّ
كثير .. ترى .. أتكون قاسياً خبيثاً ؟ ..

— تريز ! . إذا أحب المرء لم يكن شقيقاً رحيماً ! .
وكانت جالسة في الفراش ، كمن تستحم ، وقد تركت ساقها
العاريتين متدليتين ، وبقيت طويلاً بلا حراك ، وراحت في تفكير ..
ثم تضرَّج محياها بحمرة الخجل ، وكان الهوى جعله شاحباً ،
واغرورقت عيناها ، فصاح بها :

— تريز ! .. أتبكين ؟ ..

— عفواً أيها الصديق ! إنها أول مرة أحبت وأُحيت فيها
حباً صادقاً .. وإني أوجس خيفةً وأحاذر ! ..

اعتزمت تريز مغادرة فلورنسا والعودة إلى باريس تبعاً لإلحاح زوجها الذي كان في حاجة لإقامة بعض المآدب السياسية، لأن حزبه اشتد ساعده، ورجحت كفته. وكذلك إذ أتتها رسالة من أبيها مونتسوى لم يوجه فيها إلى ابنته نصيحة ما، وإنما جعلها تفهم أن الناس يغطون فيما بينهم بسفر «الكونتس مارتن» إلى فلورنسا وإقامتها فيها تلك الإقامة المحوطة بالأسرار، حيث تعيش في قبلا الأجراس عيشة تتقسّمها العواطف والأهواء بين الفنانين والشعراء. وهي نفسها شعرت أنها تراقب عن كشب في محيط فييزول المحدود. وها هي ذى يلجُ بها الحنين إلى إخفاء سعادتها في لانهاية باريس. . . وكان بודהا لوسافرت وصاحبها دي شارتر في وقت معاً، ثم آثرا أن يبقى هو ثلاثة أيام أخرى أو أربعة في فلورنسا ذرّاً للرماد في العيون. . . على أن يكون لقاؤهما قريباً، فضرِب له موعد. . . وكانت تحيا في انتظار هذا الموعد. . . وكان حبها حياتها، مختلطاً بلحمها، جارياً في دمها. ومع ذلك كانت تاركة وراءها جزءاً من نفسها في البيت الصغير لن يرجع إليها أبد الدهر. . . وفي عزّة الحياة وحميّاتها كانت تموت شوقاً إلى أشياء لا تقدّر، فذكرت أن دي شارتر قال

مرة : « إن الحب إلا عبادة أو ثان وعقيدة في التمايم والرقي .. فقد
جمعتُ من الحديقة بعض حبّات سوداء جافة من شجرة التوت
التي كنت قد نظرت إليها ! .. » .. فكيف لم يخطر لها أن تزود
بحصاة من البيت الذي نسيت فيه العالم ؟ ! ..

وأتى دى شارتر إلى القطار لوداعها ، وقد « صدّع الطعائن »
يومَ بن فؤاده ! .. » . فأدركت ترير ، وقد حال الفراق بينها
وبينه ، ما كان لها .. إنه جعل لحياتها طعمًا طريفاً لذيذاً إلى حد
أشعرها بمذاقه على شفيتها ، وكانت عائشة تحت تأثير سحر ، وفي
حلم ، على رجاء أن تعود فتراه ..

وعند ما وقف القطار في نور المحطة الكئيب ، ورأت زوجها
المغتبط بعودتها ، حيته بابتسامة المستيقظة من النعاس .. ثم قالت
لمدام مارمييه الصالحة ، وهي تقبلها ، إنها تشكرها بكل جوارحها ،
وحقاً إنها كانت تردد الشكر لكافة الكائنات .. وبينما العربية تسير
أصغت ترير صابرة إلى زوجها ، وهو يفضي إليها بأخبار نجاحه
البرلماني ، وخطط حزبه السياسي ، ومشاريعه الخاصة ، وأمانيه في
المستقبل ، وضرورة إقامة مآدبتين ، أو ثلاث مآدب سياسية كبيرة ..
فأغمضت عينيها لتفكر قائلة في نفسها : « سيجيئني منه خطاب
غداً ، وسأراه ثانية في ثمانية أيام » .. واستأنست لمناظر باريس

المألوفة لديها ، وقد اكتسبت اليوم ثوباً قشيباً من الملاحظة في
عينها .. وبدا لها أن حبها قد صبغ الكون بلون جديد .. وسألت
نفسها : ترى ، أعرقها الأشجار والأحجار ؟ .. وعجبت كيف أن صمتها
وعينها وكل جسمها والسماء والأرض جميعاً لم تهتف بسرّها ؟ ! ..
وكتبت من فورها إلى حبيبها الغائب خطاباً فائضاً بتلك
الكلمات الشبيهة بالأزاهير في نضرتها الدائمة :

[إني أحبك ... إني في انتظارك .. إني سعيدة .. أشعر بك
قريباً مني ، وليس في الوجود غيرنا ، أنت وأنا ! .. فتعال ! .. إنك على
بعدك تلهبني شوقاً إليك .. إلى ! ..] .

وهكذا وجدت تلك العواطف والخواطر دأمة الطلاوة في
نفسها ، وظلت تعيش لأسبوع هذه الحياة المقصورة على باطنها ،
وتشعر في صميمها بالحرارة العذبة الباقية بها من غراميات شارع
الفيرى ، وما تزال تحس أثر ما نالها من قبلات ، وشغفت بنفسها ،
لأن إنساناً آخر مشغوف بها حباً .. وبذلت العناية العظمى وجهد
الذوق المصنّف في انتقاء الجديد من ثيابها وزينتها .. وبهذا أيضاً
أرضت نفسها ، وأصابته . وكانت تتجن قلقاً وتلهفاً إذا لم تجد خطاباً
لها بمكتب البريد .. وكانت تطير فرحاً عندما تسلم إليها رسالة
تعرف على غلافها خط صاحبها الجميل .. فتلتهمها الذكريات ،

والرغبات ، والنزعات التهامًا . . . وبدا تمر الساعات الضائعة الحارة
اللاعجة سراعًا .

أما صباح اليوم المحدد لحضوره ، فقد بدا لها خاصة طويلة
طولاً مملاً ممقوتاً . . . فذهبت إلى المحطة قبل موعد القطار الذى
أعلن تأخيره ثلاثة أرباع ساعة . . ظل يتساقط عليها خلالها الضوء
الكأبى من وراء بلور فناء المحطة كأنه حبات لا عداد لها من الرمل
فى ساعة رملية تقيس لها دقائق هنائها المفقودة ! . . حتى وصلت
القاطرة الهائلة ، ورأت صاحبها يشق غمار جمهور المسافرين
المزدحمين سراعاً إلى العربات . . فنظر إليها بذلك الفرح المكفهر
القوى الذى تعرفه ، وقال :

— أهذه أنت أخيراً؟ . . لقد كنت أخشى أن أموت قبل
أن أعود فأراك . . إنك لا تعرفين ، وأنا نفسى لم أكن أعرف ، أى
عذاب هو عذاب العيش أسبوعاً فى بعادك ! . . ولقد عاودت زيارة
بيت شارع الفييرى الصغير ، وهناك . . فى غرفتنا . . ذرفت دموع
الجوى ، وصحت من لوعتى ، وصرخت كمدًا . .

— وأنا؟ . . أفلا تحسبنى ناديتك ، وأردتك ، وأنى حتى فى
وحدتى قد مددت ذراعى نحوك؟ . . ولقد أخفيت رسائلك حيث
أحفظ حلّى ، وأخذت على نفسى إعادة تلاوتها كل ليلة . فما أطيب

ذلك لولا خلوه من الفطنة ! .. إن رسائلك هي مثلك وحدوك ،
ومع ذلك فليس فيها غناء ! ..

وقطعا ساحة المحطة بين العربات المكدسة بالأمّعة ، فسألته ألا
يركبان عربة ؟ فلم يجب ، ولاح عليه كأنه لم يسمع ، فعادت تقول :
— ذهبت أرى بيتك ، فلم أجروا على الدخول .. فنظرت
من خلال السياج ، ورأيت في ساحة الدار شجرة كبيرة ، وراءها
نوافذ ذات عوارض مُلتَفّة حولها أغصان الورد .. فقلت لنفسي :
« أن هناك ! .. » ، فشعرت باضطراب غريب .

وكان قد كفّ عن الإصغاء لها ، أو النظر إليها .. فاجتازا
الرصيف مسرعين ، وخرجا من سلم ضيقة إلى شارع مقفر يتاخم فناء
المحطة ، وكان بين أكواخ خشبية ومخازن للفحم الحجري فندق
صغير قاعته الأرضية مطعم صُفّفت موائده على الرصيف ، وعلى
نوافذه ستائر بيضاء ، فوقف دى شارتر عند بابيه الصغير ، ودفع تريز
إلى الدهليز المظلم .. فسألته :

— إلى أين تسوقني ؟ .. كم الساعة الآن ؟ .. يجب أن أعود
إلى البيت في منتصف الثامنة ! .. ويحنا من مجنونين !

وهناك في غرفة حمراء البلاط ، أثاثها سرير من خشب الجوز ،
وسجادة عليها صورة سبع ، ذاقا لحظة نسيان أبدية

.....
قالت وهما ينزلان الدرج :
— چاك ! .. يا حبيبي ! .. إنا سعيدان جَهْدَ السعادة ! ..
لنحْن نختلس الحياة ! ..

وفي اليوم التالي، استقلت مركبة درجت بها إلى بيته .. وكان
 دى شارتر يرقب منذ ساعة محضرها ، فاستخفه الفرخ ، إذ سمع
 الجرس ، وإن كان القلق ما برح يسومه سوء العذاب . فنزل
 ليلقاها . فوقفت في ظل الدهليز الرطب حيث كان يحس من يقربه
 ما في داخله من فاخر تماثيل البرنز والمرمر ، ووقفت متصدعة من
 ضربات قلبها التي تدق سراعاً في صدرها . فضمها إليه ، وقبلها
 قبلات طويلة .. فسمعتة في تأثرها وطنين أذنيها يذكّرهما متع
 اليوم الماضي، ولذاته الباغته، فعادت فقامت أمام ناظرها صورة السبع
 الأفريقي المرسومة على سجادة غرفة النوم ، وردّت إليه قبلاته
 بأناة لذيدة ...

فصعد بها من سلم خشبية إلى حجرة كبيرة كانت فيما مضى
 مشغل «ستوديو» أبيه .. واتخذها هو للرسم وصنع التماثيل ،
 ولمطالعة خاصة ، فقد كانت القراءة عنده بمثابة الأفيون ، توحى إليه
 الصفحة المفتوحة الأحلام ... فقادها إلى أريكة واسعة واطئة على
 وسائدها أغطية أندلسية فاخرة وحلل أستانبولية ، لكنها جلست في
 فوتيل ، فقال :

— أهى أنت! ... أنت هنا! ... أنت حسبي! ... فليات

الموت إذن! ...

— إني لا أرى هنا شيئاً من صنعك ، فلا تمثالاً ، ولا نقشاً ،
ولا شكلاً من أشكال الشمع ، ولا دمية رقيقة ، ولا لوحة أو
مسكوكة واحدة! ...

— وكيف يخطر لك أننى أحتمل العيش وسط ما صنعت
يداي؟! إني أعرف أشكالى حق المعرفة، وهى تضايقنى .. وما لا سرّ
فيه يخفيه ، فلا جمال له يبيديه! ...

فنظرت إليه عاتبة :

— إنك لم تذكر لى قط أن الشئ يفقد جماله عندك إذا لم يعد

له سر يكتمه عنك! ...

فأخذ بخصرها :

— إن لكل حى سرّاً معمى! وأنت عندى يا حبيبتي لغز غير
محلول .. فيه من لذات الحياة وأهوال المنون . فلا تخشى أن تكونى
لى . فسأظل أتشهاك أبداً ، وسأظل أجهلك أبد الدهر وهل نال
أحدٌ يوماً من يحبه؟؟ هل القبلات والملاطفات والمعانقات غير جهد
يأسٍ لذيذ؟؟ إني إذ آخذك بين ذراعى لا أفتأ باحثاً عنك مشوقاً
إليك .. ولن أنالك أصلاً ، مادمت أريدك ، وما دام مرادى منك

هو المستحيل استحالة مطلقة .. أما ما أنت ، فعلمه عند ربى ! ..
فتعالى ، إلى ، فلشد ما فكرت فيك قاسى الفكر فى عذاب بعدنا ..
فإلى يا حبيبتي ، ففبك وحدك أستطيع أن أنسى نفسى وأنساك ! ..
— أرنى بقية الغرف ، فإنى متشوّفة ، أريد رؤية كل شىء !
فسار بها إلى حجرة رأت فيها صورة أبيه وأمه :
— إن حجرة أمى المسكينة ، هى مثلى ، تتذكر ...
— ما أشبهك بأملك ! .. فإن لك عينيها ... وقد أخبرنى
بول قانس أنها كانت تعبدك ...
فأجاب مبتسما :

— أجل ، كانت أمى شائقة ، ذكية ، سليمة الذوق ، ولكن
غير ذات رأى راجح . فإن حبها الأموى كثيراً ما بلغ حدّ الجنون .
فلم تكن تدعى لحظة واحدة مستريحاً . لقد نغصت عيشها ونغصتني .
والآن سأريك حجرتى ، وإذا لم تكن مرتبة فاعذرى «مدام فوزلييه»
وصيفة البيت ، التى أمرتها أن تحترم إهمالى ! ..

كانت ستائر النوافذ مرخاة ، فتركها كذلك ، وبعد ساعة ،
أزاحت هى ثنيات الحرير الأحمر ، فبهرت عينيها أشعة الضوء التى
سطعت على شعرها المنفوش . فبحشت عن المرأة ، فلم تجد غير مرآة

فينيسية ، كابية في إطارها الأسود الكبير ، فوقفت على إخصى
قدميها لترى نفسها ، وتساءلت :

— أهذه أنا ، ذلك الطيف المظلم البعيد ؟؟ إن اللواتي وقفن
أمام هذه المرأة رأين أنفسهن فيها كما أرى نفسي .. فما أبشع
إرضاءك من تنالهن بتحويلهن على نحوى إلى ظلال كئيبة !!
ثم اعتراها هاجس ، فجأة ، فصاحت :

— رباه ماذا يظن بي ذلك الرجل ذو الشوارب المخيفة الذى
فتح لى الباب ؟!
فابتسم قائلاً :

— ذلك « فوزلييه » خادم أبى القديم ، ومنه ومن زوجه يقوم
بيتى ، فاطمئنى .. إنهما فى مسكنهما ، مخلصان على سوء خلقهما ..
وبصرت على الحائط بدمية من صنع دى شارتر ، تمثل صبية
من بنات الشوارع ، لعوباً فاجرة ، فسألت : « ما تكون هذه ؟ »
— هذه « كلارا » الصغيرة بائعة الصحف بشارع « دمور » .
وكانت تجزر لى صحيفة « الفيجارو » لمطلع كل صباح . وعلى
خديها طابعا حسن خلقا عُشَّين للقبْل .. فقلت لها مرة : « أريد
رسم صورتك » .. فجاءت صبيحة يوم من أيام الصيف ، مزينة
بالأقراط والخواتم المشتراة من سوق « نواي » .. ثم اختفت ، فلم أجد

أراها . ولا أدري ما جرى لها . لقد خلقت مسوقة بفطرتها لتكون
فاجرة كبيرة .. أفتردين أن أرفعها ؟

— كلا ، فدعها ! .. إنها حسنة المنظر في هذا الركن ، ولست
غيبورا من كلارا ! ..

وحان وقت عودتها إلى بيتها ، لكن لم يكن قد استقرَّ بعد
عزمها على فراقه ، فطوّقت بذراعيها عنق حبيبها وقالت :

— آه ! أحبك ! .. إنك كنت اليوم ضاحك السن منشرح
الصدر .. والله ما أبهى سرورك ! .. إنه متألّق رشيق .. فليتك
تكون دائماً مسروراً ! فإن حاجتي إلى الفرح تكاد تعدل حاجتي إلى
الحب .. ومن ذا الذي يمنحني الفرح إن لم تمنحني أنت إياه ؟ !

مضت على ترين ستة أسابيع منذ عودتها إلى باريس ، وكأنها تعيش في غفوة حارة من الهناء . وكانت تلقى جاك كل يوم في بيته الصغير . فإذا جاء المساء وانتزع كل منهما نفسه من صاحبه آخر الأمر ، ذهبت حاملة في قلبها تذكارات غرامها المعبودة . أما تعبها اللذيذ وميلها المتجدد فقد ربطا ساعات الهوى بعضها ببعض . وكانا في الأذواق صُنوين . تتملكهما مشاعر واحدة وتصورات واحدة ، وتحملهما معاً أجنحة الأهواء الواحدة . وكان يسرهما أن يجوسا خلال الأصقاع الخلوية البهيجة الخفية في ظاهر المدينة ، وأن يغشيا الشوارع الضيقة حيث الحانات الملونة بلون عكارة النبيذ . .

في ذلك اليوم بدا لهما أن يركبا الزورق الذي طالما رآته يمر تحت نوافذها ، ولم تخف أن يعرفها أحد . فقد أغفلت كل محذور منذ عرفت الحب . « وصريع كل هوى صريع هوان » ! ورأيا الشواطئ تضحك هاربة من جذب الضواحي المتربة . ونزلا عند « ميدون » السفلى . وإذا قالت إنها ظمآنة أدخلها من باب جانبي حانة فيها غرف مفروشة . وكانت بناءً ينوء بالشرفات الخشبية جعله الفراغ يبدو أكبر مما هو ، وكأنه نائم في سلام الريف منتظراً يوم الأحد أن تملأه

ضحكات الصبايا وصيحات المتنزهين ومجذفي القوارب ورائحة الطهي
ونشئة السمك المقلّي .

فرقيا درجات على شكل سلم طقطقت تحت أقدامهما ، وخلصا
إلى حجرة في الدور الأول حيث واقتهما خادم بنيذ وبسكويت .
وكانا يريان من الشباك المفتوح نهر السين بشاطئيه الأخضرين ،
والشمس تجنح إذذاك إلى قم أشجار الحور ، والبعوض يرقص
جماعات ، وكأن سلام الأصيل الصيفي قد شمل السماء والأرض والماء
جميعاً . . فنظرت تريز طويلاً إلى النهر يعب عبا به ، وقد مخر الفلك
يدق رفاصه الماء دقاً ويشقه شقاً ، والزخير يتراعى على الساحل فيهنز
البيت الخشبي القائم على الضفة هزاً كما لو كان زورقاً . . وتلاقت
شفاههما . . ثم غاصا في لجة من يأس الغرام المسحور . . فلم يلحظا مرور
الوقت عليهما ، إلا من صوت تكسر الأمواج تحت الشباك الموارب
عقب مرور الرفاص في كل عشر دقائق . وكانت ثيابها المنزوعة
بنافذ الصبر ملقاة بلا مبالاة على أرض الغرفة الخشبية . فرفعت رأسها
عن الوسادة ، ورأت في المرأة جسمها الغض ينازع الزهر بهاءه والبدر
سناءه . فأجابت عن عبارات الشناء التي نثرها عليها صاحبها بلسان
غرامه قائلة : « ومع كل . . حقيقة أنني خلقت للحب ! . . » . وفي
حس صادق بسلطان جمالها ، تأملت شكل قدّها ، وصورة وجهها ،

على النور الأرجواني الذى زاد الورد الشاحب أو القرمزى — ورد
خديها وشفتيها ونهديها — زهوة ونضرة .. وقالت: « أهوى نفسى
لأنك تهوانى » ! ..

إنه قد هوى بها ييقين . ولم يكن فى وسعه أن يفسر لنفسه لم
كانت محبته لها شففة لاجبة وهياماً جارفاً معاً . إن محبته لم تكن
بسبب جمالها ، وإن كان مع ذلك أندر وأثمن ما يكون عليه الجمال
الأنثوى .. لقد كان لوجهها أساريه .. والأسارير الجميلة هى البرق
الذى يشعل العين بالنار الآكلة للذيذة . فأنت ترغبها وأنت ترهبها ..
لأنها داعية الإعجاب ودعوة العذاب . وإن ما يحثت قوادم الاشتها
والحب إنما هو قوة حلوة مروعة ، أقوى من الجمال وأشد بأساً وبطشاً .
فقد تجد امرأة واحدة من بين ألف امرأة إذا نلتها مرة لا تستطيع
قط أن تتركها .. فتشتينها دائماً وتريدها أبداً . إنه زهر لهما سبب
هذا الداء ، داء الحب ، الذى ليس له دواء . وهنالك سبب آخر
لا تفسير له ، وهو روح جسمها ، إنها كانت تلك المرأة التى لا يمكن
هجرها ، ولا خيانتها فى غيرها ..

قالت ، وقد خرجا ، فى السابعة مساء :

— لن أجد يا حبيبي عذراً أنتحلله للبقاء فى باريس أثناء العطلة
البرلمانية ، فإن أبى لا يفهم الآن الولوج الذى يستبقينى هنا ، ولا مفر

من اللّحاق به على شاطئ البحر في « دينار » ، في خلال ثمانية أيام ..
فكيف يكون حالى بدونك ؟ ..

وشبّنت يديها ، ونظرت إليه بحزن لا حدّ لحنانه ! .. لكنه
كان أشدّ اكتئاباً ، بل كان من أمره في عُجّة لا متجه للرأى فيها ،
فقال :

— إنه أنا يا تريز ، أنا الذى يجب أن أسأل نفسى ما يكون
خالى ؟ إنك عند ما تتركينى وحدى تحاصرني الخواطر المحزنة ، وتأتى
الأفكار السود فتحفّ من حولى ...
فسأله :

— وما هذه الأفكار ؟
فأجاب :

— إننى يا حبيبتي قد قلت لك ذلك من قبل ، إنه يجب أن
أنساك فيك ، فإذا ما ذهبت عنى جاءت ذكراك تعذبني .. وعلى
عدلاً أن أؤدى ثمن ما تمنحيني من سعادة .

كان البحر الأزرق يصب لجته الفضية برفق على رمال الساحل
 الناعمة الممتدة على طول الجون المنتهى بشبه قرنين من ذهب . وكان
 اليوم صحوً ، حَسَرَت فيه الشمس قناعها وذكت ذكاء . وفي حجرة
 تعطرها الزهور ، ذات شرفة مطلة على حديقة يتضوع أريجها ،
 ووراءها المحيط بشاطئه وجزره وخليجانه ، جلست تزين تقرأ الرسائل
 التي ذهبت في طلبها في الصباح من مكتب بريد « سان مالو » ولم
 تشأ أن تفتحها في المعدية الغاصة بالركاب . وقامت بعد الغداء من
 فورها فأوصدت حجرتها ، ثم نشرت الرسائل على ركبتيها وقرأت
 متلهفة متدوقة بسرعة شرهة فرحها المختلس المنهوب . . وكانت قد
 تلقت في ذلك النهار خطابين تلت أولهما فكان يفوح منه عبير فرح
 الهوى ، ولم يلح لها قط صاحبها أشد فرحاً وهناءً بحبه وحبها منه
 في هذه الآونة . قال في خطابه إنه منذ أحبها وهو يسير بخفة ورشاقة
 إلى حد أن قدميه تكادان لا تمسّان الأرض . . وما كان جزعه
 إلا لشيء واحد ، هو أن يكون حالمًا ، فإذا استيقظ ألغى نفسه مجهولاً
 منها . أجل ! إنه لا ريب حالم ! وأى حلم ! . بيت شارع الفييرى
 الصغير ، وحانة ميدون ، والقبيلات ، وتانك الكتفان العاجيتان ،

وكل تلك البشرة يضحك فوقها « طابع الحسن » ، وذلك البدن
الرَّخص الرطب المعطر كجدول يسيل بين الأزهير . . فإذا لم يكن
حالمًا ، فهو النووم المستيقظ . . السكران الذي يغنى . . . وكانت على
غيابها عنه لا تفارق بصره :

[نعم إني أراك بقربي ، وأرى أهدا بك رسالة على عينيك أشد
بهاءً من كل زرقة في الزهر أو في السماء . . وشفتيك اللتين لهما لحم
وطعم أشهى من الفاكهة العجيبة ، وخديك اللذين وضع الضحك
فيهما غمازتين معبودتين . أراك جميلة مشتهاة ، لكنك هاربة مخفية ،
فإذا فتحت ذراعيَّ ، وجدتك قد ذهبت ، وتبينتك بعيدة جداً ،
بعداً ساحقاً ، على الضفة الصفراء الممتدة ، لا تزيدن وأنت في ثوبك
الوردي وتحت مظلتك على برعم مزهر . . أواه ! . . وأقول لنفسى :
« إن قشةً من العشب تكفي لحجبها عني تماماً ، ومع ذلك فهي عندي
أبد الفرح والترح » . .]

وكان كل ما يشكو منه عذاب البعاد . وكذلك مزج بشكواه
بسمات الحب الهنيء . وهددها مازحاً بالذهاب لمباغتها في دينار :
[لا تخافي ولا تجزعي ! . . فلن يعرفوني ، فسأتنكر في زى
بائع تماثيل حص . . وسأرتدى سترة رمادية وسروالاً من الكتان .
يغطي لحيتي ووجهي عثيراً أبيض ، وسأقزع جرس الباب الخارجي لقيلاً

موتسوى . فتعرفيننى يا تريز من التماثيل الصغيرة التى تملأ لوحاً أحمله
فوق رأسى . وستكون كلها تماثيل « الحب » . . فيكون فيها : الحب
الوفى ، والحب الغيور ، والحب الحنون ، والحب المتيم . . وسأصيح
بلهجة فنّانى بيزا أو فلورنسا : « كل حى للسنيورة تريزه » ! . . [
وكانت آخر صفح هذا الكتاب رقيقة جامعة ، فياضة بالتعبّدات
الحارة التى أذكرت تريز كتب الصلوات التى طالعتها وهى طفلة . .
فذهب فؤاد تريز فى أثر هذه الملاحظات الخفية ، وهو
يؤكد لها :

[الليلة تنزهت فى الطريق الذى لقيتكَ فيه مساء يوم من أيام
الشتاء ، وقطفت غصناً من الأغصان التى كنت قد نظرت إليها . .
إنى فى هذه المدينة التى لا تحتويك لا أرى سواك . فلم يحلّ للعينين
بعدك منظر ! . .]

وأغمضت عينيها ونكست رأسها على مضجعها ، ثم فتحت
الخطاب الثانى ، فقلقت لما رأت من تغير الخط ، وطلوع السطور
ونزولها ، وأبصرت الصفحة تشف عن حزن وعنف . وكانت الفاتحة
الغامضة تتم عن غصة باغثة وشكوك مظلمة :

[تريز ! . تريز ! . تريز ! . لماذا صرت لى ما دمت غير قادرة
على موهبة نفسك كلها بأسرها ؟ ! ماذا يكون حالى ، وقد خدعتنى ،

الآن إذ أعرف ما لم أكن أشاء معرفته ؟ ! . . .]

فتوقفت ، وضربت على بصرها غشاوة إذ رأت أنياب الغيرة تمزقه شر ممزق ، فقنطت ، وقالت لنفسها : « لقد كنا الآن سعداء حقَّ السعادة ! رباه ! ماذا جرى ؟ وإذا لم أكن قد برهنت له بكل قواي على محبتي وعلى أنني أحبه بكل نفسى ، فكيف السبيل إلى إقناعه يوماً ؟ . . . » . وخفت إلى استجلاء سبب هذه الحماقة الداهية . فأخبرها بها : بينا كان يتغدى في مطعم بشارع رويال التقى وصاحباً قديماً كان ماراً بباريس ، فبدأ يتحدثان . . وشاءت المصادفة أن هذا الرجل الواقف على دخائل المجتمع يذكر الكونتس مارتن التى يعرفها . وقطع دى شارتر حديثه فجأة بهذه السطور :

[تريز ! . فيم الكذب على ما دمت سأعرف حتماً ، يوماً ما ، ما كنت أجهله وحدى ؟ ! على أن الذنب ذنبى أكثر مما هو ذنبك . . وخطابك الذى وضعته فى صندوق بريد سان ميكيل ، وموعداك فى محطة فلورنسا ، قد أنذرانى بما فيه الكفاية ، لو أنى لم أستسلم استسلاماً أعمى إلى أوهامى ، مع جلاء البيئة ونصاعة البرهان . فقد أبيت معرفة أنك كنت لرجل آخر فى اللحظة التى تعطينى فيها نفسك بذلك اللطف الجسور ، ذلك الاشتواء الكامل الذى سألقى منه حتى . . لقد أثرت التجاهل ، ولم أسألك تفسيراً ، خشية ألا تجدى

سبيلاً إلى الكذب . وكنت في هذا فطناً ، حتى جاء أحق على حين
غفلة ، وفي غلظة ، وأمام خوان مطعم ، ففتح عيني وعرفني ، وأنني
راغم . أوّاه . . الآن إذ أعرف ، الآن إذ لا أجد بعد محلاً للشك ،
يخيل إليّ أن الشك كان لذيذاً ! وقد فاه بالاسم ، الاسم الذي سبق
أن طرق سمعي في فيزول ، على لسان مس بل . . وأردف الرجل
قائلاً : « تلك حكاية معروفة » [. . .] واستطردى شارتر :

[أ كذا أحبته ، وما زلت على حبه ! ؟ في حين أنني وحدي ،
أعض الوسادة التي توسدها رأسك ، قد يكون هو بقربك ؟ ! ليس
ريب في أنه معك ! . فهو يذهب دائماً إلى سباق الخيل في دينار
كما قيل لي . إني أراه . . إني أرى كل شيء ! . . ولو عرفت
التصورات التي تلازمني لرميتني بالجنون ولأشفقت علىّ ورثيت
لحالي . أوّاه ! لشد ما أتمنى نسيانك . . لكنني لا أستطيع . وأنت
تعرفين أنني لا أستطيع أن أنساك إلا فيك . . إني أراك ملازمة له
كظله . فيا للعذاب ! . . حسبت نفسي تعساً في تلك الليلة التي
تعرفين ، على شاطئ الأرنو . . لكنني حينذاك لم أكن عرفت
بعد معنى الألم .]

ولما فرغت تريز من قراءة هذه الرسالة ناجت نفسها بقولها :
« إنها كلمة القيت اتفاقاً فأدّت به إلى هذه الحال . إنها كلمة رمت به

في ظلمات القنوط ومهاوى الجنون . . . » . وتساءلت عمن يكون
الشقي الذي ذكرها بمثل ذلك السوء . وقالت لنفسها : « سأعرف ! » .
لكن ماذا تفعل في فترة الانتظار؟ إن صاحبها كان يائساً ، مهووساً ،
مريضاً ، وهي لا تستطيع الإسراع إليه ومعانقته ، وإلقاء نفسها بين
ذراعيه ، تاركة جسمها وروحها له باستسلام تام ، إلى حد يشعر معه
أنها كانت له بأسرها ، وإلى حد أن تُكرهه على الوثوق بها . .
تكتب؟! .. لكن ما أفضل السفر إليه ، والسكون إلى فؤاده ،
في صمت ، وبعد ذلك تقول له : « اجرؤ على الظن بأني لست لك
وحدك ! » . بيد أنها لا تستطيع غير الكتابة . . وأعادت تلاوة الصفحة
الأخيرة :

[إن فكرة أنك كنت لغيري تحرقني وتمزقني . وكذلك
لا أحتمل أن يكون الغير هو ذاك! ..]

فجلست إلى المنضدة . . وكتبت ، في سورة عاطفة مشبوبة
ملؤها الشجن ، رسالة كررت فيها القول كالنواح :
[إني أحبك ، أحبك ، ولم أحب أصلاً سواك . إنك وحيد ،
وحيد ، أفاهم أنت؟ وحيد في فؤادي ، وحيد في! .. فلا تستمع قول
ذلك الشقي ، واستمع قولي . وأقسم لك أنني لم أحب إنساناً قبلك! ..]
وبيناهي تكتب ، كانت زفرات البحر المهولة تصاحب تهديدات

صدرها . وقد أرادت أن تكتب الحقيقة ، واعتقدت أنها تكتبها ،
وكان كل ما قالته صادقاً بصدق حبها . وسمعت وقع أقدام أبيها ،
الثابتة الثقيلة ، على السلم . فأخفت رسالتها وفتحت الباب ، فسألها
مونتسوى وهو يدلها ، أليست أحسن حالاً ؟ وأردف قائلاً :
— أتيت أمسيك بالخير وأسألك شيئاً : يحتمل أن ألقى غداً
لومنيل في سباق الخيل . أقترين إذا لقيته يا بنيتي الحبيبة أن أدعوه
إلى المجيء ليقضى أياماً معنا ؟ فزوجك يظن أنك تسرين برؤيته .
ونستطيع أن نعد له الحجرة الزرقاء .

فقالت :

— كما تشاء . غير أنني أؤثر أن نحفظ بالحجرة الزرقاء للكاتب
بول فانس الشديد الرغبة في الحضور . كما يحتمل أن يأتي الشاعر
شوللت دون سبق إعلان ، فتلك من عاداته ، فلا نلبث أن نراه
ذات صباح يدق جرس الباب الخارجي كالشحاذ . وزوجى مخطيء
في زعمه أنني أستطيع عشرة لومنيل . دع أن لدى في الأسبوع
القادم ما يستدعى ذهابى إلى باريس لقضاء بضعة أيام .

بعد أربع وعشرين ساعة من كتابة ترين خطابها إلى دي شارتر، وصلت من دينار إلى بيته، بشارع ديمور، في حي لو ترن. اختلقت عذراً لذهابها إلى باريس فبغتت چاك في مشغله صباحاً، بينما كان يرسم صورة كبيرة لفلورنسا على شاطئ الأرنو. وكان المثل فتاة طويلة سمراء نضت عنها ثيابها. . فاستقبل دي شارتر الزائرة الحبيبة بنظرة ملؤها الغبطة الحزينة، ووضع أداة الرسم جانباً، وغطى الصورة بنسيج مبلى، وقال للفتاة النموذج، وهو يغسل يديه في آنية خزفية: «حسبنا اليوم يا ابنتي». فوثبت، وجمعت في قبضة ثيابها القائمة القدرة، وقامت وراء الستر ترتديها. ثم خرج دي شارتر وترين من غرفة الاستوديو، فقالت:

— إنك لم تعد عند ظنك، أليس كذلك؟

فسار بها إلى حجرتة، وكان خطابها الذي أرسلته من دينار قد خفف نوعاً من وساوسه الأليمة. وقد جاءه في لحظة نهكته فيها الأوجاع المضنية، فكان بحاجة إلى الهدوء والحنان. فبضعة سطور قد سكنت من فائره، وأخذت من نائره. ولكن ما زال في قلبه لوى وفي جسمه ضنى.

وفي الحجرة ، حيث يعرفها ويحادثها كل ما فيها ، وحيث
الأثاث والستائر والبُسط تبوح بحبها ، همست بألفاظ معسولة :
— إنك قدرت على الظن ! .. فلست إذن عارفاً قدر نفسك ؟
إنها كانت حماقة ! .. كيف يسع امرأة عرفتك احتمال رجل بعدك ؟
— وقبل ذلك ؟

— كنت من قبل في انتظارك !
وفي غمرة الدهشة السارة من رؤيته إياها ، وسماعه صوتها ،
استسلم إليها وخفض جناح المحبة . فسأله عمن قال ذلك القول
الحقود . فلم يجد داعياً لإخفائه عنها . فهو « دانيال سامون » . فلم
تدهش لأن دانيال سامون هذا الذي أخفق في أن يكون محبوب أية
امرأة ، أراد أن يحظى على الأقل بمودة جميع النساء بمعرفة أسرارهن .
فحزرت السر في كلامه عنها ، وقالت :

— چاك ! .. لا يغضبنيك ما سأقوله لك . إنك لست ماهراً
في إخفاء عواطفك ، فتقسس أنك تهواني ، وأراد أن يتحقق ،
وإني واثقة من أنه الآن لا يخالجه شك في علائقنا ، لكن سيان
عندي ، فلست ألقى إلى ذلك بالاً . بل على الضد لو أنك كنت
أمهر في الخديعة لكنت أقل اطمئناناً ، ولظننت أنك لا تحبني
كفاء حي ..

ثم أسرع فغيرت الموضوع خشية أن تساوره الشجون ،
فقال :

— لم أحدثك عن مبلغ إعجابي بصورتك .. إنها فلورنسا على
ضفة الأرنو ، فهي أنت وأنا ! ..

— نعم ، لقد وضعت في هذه الصورة لوحة غرامى . إنها
حزينة ، وأردت أن تكون جميلة ، فتأملى يا تري ترى أن الجمال حزين .
وهذا هو السر في أننى مذ صارت حياتى جميلة ، جعلت أتألم ...
ثم مرت بها غمة ، إذ تذكرت أن عليها الرجوع إلى دينار بعد
أسبوع ، ثم الذهاب إلى قصرها فى چوانثيل ، وأنهما فى خلال ذلك
يضرب الفراق بينهما . وستسأل والدها أن يدعوها إلى چوانثيل
لتمضية بضعة أيام فيها . لكنهما لن يجدا هناك المجال لحريرتهما
وانفرادهما ، كما يجداه فى باريس . فقال :

— صدقت . إن باريس بلانهايتها المهمة خير لنا .. حتى فى
غيابك ، لا أستطيع مغادرة باريس . إننى أمقت السكنى فى بلد
لا يعرفك . فإن سماء وأرضاً وجبالاً وأشجاراً وجداول وعيوناً وتماثيل
لا تقدر على التحدث إلى عنك ، ليس لديها ما تقوله لى ! ..

سطعت شمس الشتاء الشاحبة من خلال ضباب نهر السين على

قصر الكونتس مارتن . وكان الحديث يدور على المائدة في السياسة وترشيح زوجها للوزارة . وبينما كانوا يتناقشون في الأسماء ، كانت تريز تتذكر صور حياتها القلبية الخاصة . فقد عادت إلى باريس مع قرينها الكونت في وقت اجتماع البرلمان ، ومذذاك وهي تحيا حياة مسحورة . . .

ثم نهضت تريز وتركت رجال السياسة في ثوبى الأضياف ، وخفت إلى لقاء حبيبها دى شارتر . وفي ذلك اليوم ، كما في كل يوم ، إذ أخذت طريقها إلى البيت الصغير في حي لوترن ، كانت تفكر في سعادتها وتقول لنفسها :

« إنه يحبني ، وفي ظني أنه يحبني بمجامع فؤاده . فإن الحب عنده أسهل وأقرب إلى طبيعته مما هو عند سواه من الرجال . ففي حياة هؤلاء أفكار أسمى منهم ، عقيدة ، أو عادة ، أو مصالح ، وهم يؤمنون بالله ، أو بالواجب ، أو بأنفسهم . . أما هو فيؤمن بي . فأنا إلهته ، وواجبه ، وحياته جميعاً . . .

« وهو في الواقع كذلك في غير حاجة إلى إنسان . حتى ولا إلى . فأفكاره عالم عظيم يستطيع أن يحيا فيه بسهولة حياة موفورة . . لكنني أنا لا أستطيع العيش من دونه . . فماذا يجري عليّ لو أنه لم يعد لي . »

وفي زاوية بولقار مارسو وشارع جاليليه ، تكهنت بمعرفة شبّح ،
شبّح شخص منسى ، مرّ على مقربة منها . . فظنت نفسها واهمة ،
وأرادت أن تكون واهمة . فالذى تصورت أنها قد رآته لم يعد له وجود .
ولم يكن له وجوداً أصلاً . . .

وبينا هي تطوى الشارع طياً ، رأت باعة الصحف يجرون
نحوها حاملين جرائد المساء برؤوس عناوين ضخمة إعلانياً عن الوزارة
الجديدة . فاجتازت ساحة الإيتوال ، تحت خطاها رغبتها المملول .
ورأت بعين قلبها چاك ينتظرها في صحن الدرج بين تماثيل المرمر
والبرنز العارية . . وقد أخذها بين ذراعيه وحملها ، بعد إذ هي مرتجفة
مضناة من أثر العناق والقبلات ، إلى تلك الغرفة التي ملؤها الظل
والمتاع ، وحيث رضاء الحياة أنساها الحياة . .

ولكن ، في هدأة شارع مكماهون ، اقترب الشبّح الذي سبق
أن رآته في زاوية شارع جاليليه ، وظهر بقربها بوضوح شديد مؤلم .
فعرفت فيه رويير لومنييل ، الذي بعد ما اقتفى أثرها من رصفة
« دوييلي » أتى فالتقى وإياها في أهدأ وأسلم بقعة من الطريق . وكان
يبدو عليه هدوء يخفى ويُبدي علامات الألم العميق . . فقال :
« لي كلام معك . . » . . فأبطأت في سيرها ، فمشى إلى جانبها ، وقال :
— حاولت أن أسلوك وأنساك ، وهو أمر طبيعي بعد الذي

كان .. أليس كذلك ؟ .. ولم أدخر جهداً في هذا السبيل .. أى
والحق ، فلم يكن خيراً من نسيانك .. بيد أننى لم أستطع فاشتريت
يختاً أبجرت به ستة أشهر .. ولعلك تعرفين .. واليخت « زر الورد »
يخت جميل .. حمولته ثمانون طنّاً ، وكان عندى من الملاحين ستة
رجال ، فاشتغلت معهم ، وهذا ألهانى ..

ثم سكت ، وكانت تسير الهوينا ، محزونة ضجرة ، فقد كان
عندها سخافة من كل وجه ومدعاة للألم أن تصغى إلى هذا الحديث
العجَب .. واستطرد :

— غير أننى أخجل من إخبارك بالعذاب الذى لقيته على ظهر
هذا اليخت ، ففكرت خلال ستة الأشهر تلك أكثر مما فكرت
طول حياتى .. لاتضحكى ، فلا شئ أفتق للذهن من الحزن ..
وأدركت أننى إذا كنت قد خسرتك فالذنب ذنبى ، وكان علىّ أن
أعرف كيف أحتفظ بحبك .. فإننى لم أقاسمك أذواقك وأفكارك
حق المقاسمة . فأنت امرأة وثابة الخاطر متوقدة الذكاء ، فلم أفطن
إلى ذلك .. لأننى لم أحبك من أجله ، وقد أسأت إليك ، وأثقلت
عليك ، من حيث لم أقدر ..

وكان بسيطاً مخلصاً فى أسفه وفى ألمه إلى حد أن استشار عطفها
عليه ، فقالت له برقة :

— أئى صديقى ، ليس لى ما يدعو إلى شكائى منك . .

— كل ما قلته لك الآن حق ، وقد أدركته فى وحدتى ، وأنا

على يحتى ، فى عرض البحر . . إذ قضيت عليه ساعات لست أتمناها
لأعدى أعدائى . . واعتزمت غير مرة أن ألقى بنفسى فى اليم . .
فلم أفعل . أفكان ذلك لاعتبارات دينية ، أم عواطف عائلية ،
أم لأنه لم تكن لى الشجاعة ؟ . . ما أدرى ، وربما لأنك كنت ،
على ما بيننا من البعد ، تغلقينى بأسباب الحياة ، وها أنت ذى
تجدينى أمامك ، وقد راقبتك مدى يومين ، ولم أرد أن أزور
بيتك ، فما كنت لأقدر على لقائك على حدة ، وما كنت لأقدر
على محادثتك ، ثم إنك كنت تضطرين إلى استقبالى اضطراراً .
فأثرت مخاطبتك فى الطريق ، إذ قلت لنفسى : « إنها إذا أصغت
إلى فى الطريق فذلك لأنها تريد الإصغاء ، كما كانت تفعل منذ
أربع سنوات ، فى حديقة قصر جواناتشيل . . تحت التماثيل ، على
ضفاف البحيرة . أفلا تذكرين ؟ . . قلت إنى راقبتك يومين ،
وكان المطر أمس يهطل ، فخرجت فى عربة ، ولم أقدر على اقتفاء
أثرى ، لأعرف إلى أين كنت ذاهبة ، وهو ما أردته ، ولم أفعله ،
فإنى لا أريد فعل ما قد يسوءك . .

فدت إليه يدها قائلة :

— شكرًا لك ، لقد عرفتُ أنني لن أندم على ثقتي بك ..
وكانت منزعة ، جزعة ، وقد عيل صبرها ، وهاجت أعصابها ..
فحاولت أن تقطع عليه الحديث ، وتفلت منه ، فقالت :
— وداعًا ! .. إن الحياة مبسوفة أمامك ، وأنت سعيد ..
فتحقق من هذا ، وخفف عليك عناء الاهتمام بما لا يساوى
قلامة ظفر ..

ولكنه قطع عليها الكلام بنظرة ، وبدأت على أساريه دلالة
قوة المراس وشدة الشكيمة التي تعرفها .. وقال :
— قلت لك إن عندي كلامًا لك ، فأصغى إلى دقيقة واحدة ..
فذكرت چاك الذى هو الآن فى انتظارها ، ومرَّ بعض عابرى
السبيل فنظروا إليهما ، ثم مضوا فى طريقهم ، فوقفت تحت أغصان
شجرة ، وانتظرت فى حنو وإشفاق .. فقال :
— إني أغتفر لك وأنسى كل شيء .. فاستعيدني ! ..
وأعدك ألاّ أشير أمامك إلى الماضى بكلمة ! ..

فارتجفت ، وبدأت منها حركة دهش وكدر طبيعية ،
فتوقف .. وبعد لحظة تفكير قال :

— أعرف أن ما أعرضه عليك غير مألوف ، لكننى تأملت
فيه ، وفكرت فى كل الظروف والملابسات ، وهو الشيء الوحيد الذى

يمكن عمله ، ففكرى فيه ملياً ياتريز ، ولا تجيبينى من فورك .
— عبثاً أخذتك ، فلا أستطيع ولا أريد قبول ما ذكرت ،
وأنت تعرف السبب .

ومرت بهما عربة تسير على مهل ، فأشارت إلى الحوذى ،
فوقف ، فاستبقاها لحظة أخرى ، وقال :
— لقد توقعت أن تقولى لى ذلك ، ولهذا أعيد عليك القول
ألا تعطينى جواباً لساعتك .

وما إن دخلت العربة ، حتى ألقت عليه نظرة من عينيها ،
فتذكر الأوقات التى كانت إذا حان انفصالهما فيها ، تنظر إليه بتينك
العينين الرماديتين المعبودتين . فكظم زفرة حررى ، وتم بصوت أجش :
— اسمعى ، إني لا أستطيع العيش من غيرك ، إني أحبك ،
الآن حقاً أحبك ، أما قبل الآن . . فلا أدري ! . .

وأعطت الحوذى عنوان خياطة كيفما اتفق ، وقد أورثها هذا
اللقاء توعكاً وقلقاً ، وتمنت ، إذا لم يكن بد من لقائه ثانية ، أن تجده
فضلاً كما كان فى فلورنسا . .

وعند زاوية الشارع أهابت بالسائق :

— إلى شارع ديمور فى حى لوترن . .

كانت رواية « فوست » ستمثل في الأوبرا يوم الجمعة . فبدأت الموسيقى تعزف والنظارات المقرّبة تنفض بهو الأرجوان والذهب على الأنوار الأخاذة بالأبصار . وكانت رؤوس النساء المزينة بالجواهر وأذرعهن العارية تضيء في المقاصير المظلمة كأنها الأحجار الكريمة في صناديق الحليّ .

وكان قد ذاع في ذلك الصباح نبأ قبول المسيو برتنيه ديزل تأليف الوزارة ، وترددت على السنة الناس أسماء الوزراء الجدد ، ومن بينهم الكونت مارتن بليم وزيراً للمالية ، فجعلت النظارات المكبرة تتوجه عبثاً إلى مقصورة الكونتس مارتن التي كانت لا تزال خالية . . .

ثم ظهرت تريز في مقصورتها ، وقد رجّلت شعرها عالياً ، وكانت لابسة ثوباً أبيض ، وعلى مشد وسطها ، عند نهدها الأيسر ، تزهو زنبقة كبيرة من الياقوت . . . وجلست بقربها مس بل في ثوب من المخمل الأخضر ، وكانت قد أتت إلى باريس لتوصي على جهازها وملابسها بعد أن خطبت للأمير البرتنللي . .

قالت مس بل :

— عزيزة ! . . إن أحداً في فلورنسا لا ينساك . . حتى الخزامى

في البستان تذكري ، وتنوح أغصانها المجردة على غيابك .. إنها
تأسف عليك ، وتحن إليك ...
فأجابت تريز :

— قولي لها إنني قد حملت من فلورنسا تذكاراً هو بلالة أوامى
وعلالة أيامى ...

— سأقول لخرامى فييزول إنك تحنن إليها ، وإنك لن تلبث
أن تعودى لزيارتها على أكتها . لكننى أسألك : أتلقين مسيو
دى شارتر فى باريس ؟ .. فإنى أريد أن أراه من كل نفسى ، لأننى
أحبه ، إذ كان ذا نفس رقيقة حساسة نابهة . أجل يا عزيزة ، إن
روح المسيودى شارتر تفيض رقة وحساسية ونباهة ..

فأجابت تريز بأن مسيو دى شارتر فى دار الأوبرا لا محالة ،
فلن يقصر فى الحضور للسلام على مس بل .

وهصر الستار ، فأسرع الناس إلى الممشى ، وفى لحظة ازدحم
البهو الصغير المتصل بالمقصورة برجال المال والفنون والنواب ..
وأحاطوا بالكونت مارتى بليم يهنتونه متزاحمين بالمناكب .

واستدعى الكونت مع زملائه ، على عجل ، إلى رياسة
الجمهورية . فما كاد يخرج حتى دخل چاك دى شارتر وپول فانس
إلى المقصورة ، فقال الأخير : « أهنتك يا سيدتى » ... لكنها

التفتت إلى دى شارتر قائلة : « أرجو ألا تكون قد أتيت لتهنئتي ،
أنت .. »

وبدأ الفصل الأخير من فوست ، فلم يبق في مقصورة الكونتس
غيرها ودى شارتر ومس بل .. وكانت الأخيرة تقول :

— عزيزة ! إني مغتربة — كيف تقولون بالفرنسية ؟ — إني
متحمسة نخور برؤيتك تضعين على موضع قلبك زنبقة فلورنسا
الحمراء .. ولا بد أن يكون المسيو دى شارتر ، وله روح فنان ،
فرحاً مثلي برؤية هذه الحلية الغالية على صدرك ! ..

— إن جوهرتي هنا ، وقد سميت به ، فهو مسيو دى شارتر الذي
تفضل برسم هذه الحلية .

وفتحت المقصورة ، فالتفتت تريز ، فرأت في الظل لوميل
الذي حيّاها قائلاً :

— أرجو ياسيدي أن ترفق تهنئتي إلى قرينك .

ثم أطرى في شيء من الجفوة أدلة حسننها البادية ، ووجه إلى
مس بل بضع كلمات تناسب المقام . وكانت تريز مصغية ، قلقة ،
ساهمة ، تجهد جهدها المؤلم في الرد بأجوبة غير ذات معنى ..

فسألها : أمضت الفصل في رغد يحوانقيل .. وقال إنه كان يود
الذهاب إلى هناك في موسم الصيد ، فلم تسنح له الفرص ، لأنه كان

مسافراً على يخته في البحر الأبيض المتوسط .. ثم ذهب للصيد في
سيمنثيل .. فقالت مس بل :

— هل رأيت يا مسيو لومنييل في البحر عرائس الماء ؟

— كلا .. بل رأيت « درفيلاً » عام في مياه اليخت ثلاثة أيام !
فقالت مس بل :

— إذا جاء يا مسيو لومنييل في العام القادم درفيل حول يختك ،
فرجائي إليك أن تضرب له على الناي .. وبعد ، فهل تحب البحر ؟ .
— إني أؤثر الغاب .

— نعم يا مسيو لومنييل ، وإني أعلم مبلغ حبك الغاب وأدغال
الغاب حيث ترقص الأرانب الصغيرة في ضياء القمر ..
فشحب لون دى شارتر وقام وخرج ..

فلم تسمع تريز كلام صاحبها مس بل الذي وجهته إليها عن
التمثيل والغناء ، لأن روحها كانت قد طارت من باب المقصورة
الصغير خلف الحبيب .. ثم لم تلبث أن تمتمت :
— إن بي صداعاً ، فهذا المكان يحنق ..

ونهضت تريز ، طويلة ، بيضاء خالصة ، على صدرها الزنبقة
الدامية . وكانت مس بل تصغى إلى الموسيقى كأن على رأسها الطير .
فتناول لومنييل في الخدع معطف الكونتس مارتن ، وبينما هو يمسكه

منشوراً ، كانت هي أمام المرأة ، بقرب الباب الموروب ، فوضع
المعطف الكبير من الخمل الأحمر الموشى بالذهب المخطط بالفراء على
كتفها العاريتين ، ولمسهما بأصابعه خفيفاً ، وقال بصوت خافت ،
بكل اختصار وجلال :

— تريز ، إني أحبك ، فاذكري ما سألتك أول من أمس ،
سأكون كل يوم ، كل يوم ، من الساعة الثالثة ، في بيتنا بشارع
سبونتينى . . .

وفي تلك اللحظة ، بينما هي تحنى رأسها له ليصلح من وضع
معطفها ، رأت دى شارتر ويده على مقبض الباب ، فنظر إليها
بكل ما يمكن العين البشرية أن تفصح عنه من عتب وحزن . ثم
تحول ، واختفى بغتة في الممشى . . . فكانها شعرت بمطارق من النار
تضرب قلبها وتهد جوانب صدرها . فلبثت على العتبة جامدة
لا حراك بها . . .

لازمتها في عربتها ، وفي غرفتها ، نظرة صاحبها ، تلك النظرة
القاسية الحزينة .. وكانت تعرف مبلغ ما هو هدف لليأس وعرضة
لفقد زمام أمره . وقد رآته على هذه الحال مولياً هارباً على شاطئ
الأرنو ، يوم قالت له : كلا ! .. فحشت إذ ذاك السعادة خطاها ، في
حال غمه وهمه ، بحيث جرت إليه وصاحت به : « تعال .. » ! ..
وفي هذه المرة أيضاً ، على ما كانت محوطة به ، كان ينبغي لها
أن تجد شيئاً تقول له ، فلا تدعه يذهب عنها صامتاً متألماً .. لكنها
أخذت أخذاً في سكرات الدهشة وغمرات الحيرة والحسرة .. فقد
وقعت الواقعة السخيفة بسرعة فائقة ! فأحست مقدار اتساع الهوة
التي بينها وبين لومنييل ، فلم تسقه في غضبها بل أبعدته من فكرها ..
وبينا وصيفتها تنتظر لتنضو عنها ثيابها ، مشت جيئة وذهوباً
من نقاد صبرها . ثم وقفت بغتة . فقد رأت في المرايا المظلمة التي
تسبح فيها أضواء الشموع : ممشى التياترو وصاحبها ينسرب فيه لغير
عودة أو رجوع .

أين تراه الآن ؟ وماذا يقول لنفسه وهو وحده ؟ .. لقد كان
عذاباً لها أن كانت عاجزة عن اللحاق به للقاءه في الحال ..
وظلت طويلاً ويدها على قلبها ، زهوقاً .. فصرخت الوصيفة

جزعاً ، لأنها رأت على ثوب مولاتها الناصع قطرات من الدم . فإن
دبوس الزينة الحمراء قد خدش يدها ولم تتنبه له . فنزعت الحلية الرمزية
التي حملتها أمام الجميع كسرّ قلبها المأثور ، وأمسكتها بين أصابعها ،
وتأملتها طويلاً . . . وعندئذ قامت فتمثلت لها أيام فلورنسا ، وصومعة
سان مارك حيث طبعت قبلةً حبيبها الحلاوة على شفثتها ، على حين
رأت مرة أخرى ، من خلال أهداب جفونها المنكسرة ، بيت شارع
الفييري الصغير بما رسم على واجهته من بنات الغاب والمعز . . . والغرفة
التي سمع كل ما فيها صيحاتها . . . وصمتها الطويل . . .

كلا ! . . فما كان هذا كله ظلال الماضي ، أو أشباح أوقات
غابرة ، بل كان حقيقة حبها الحاضرة .

أهى كلمة ، كلمة ألقيت بغباء من أجنبي فأبادت هذه الأشياء
الجميلة ؟ ! . . إن هذا ، لسعد الطالع ، ليس في الإمكان . فإن حبها
وحبيبها ليسا متكئين على تكأة واهنة من الرمال . فلو قيص لها
فقط أن تجرى إلى بيته كما هي الآن ، مجردة من نصف ثيابها ، تحت
جنح الظلام ، وتدخل غرفته . . إذن لوجدته جالساً إلى النار ، ومرفقاه
على فخذه ، معتمداً رأسه بيديه ، وقد تشعبته الهموم وتقسّمت الغموم . .
وعندها تُخلّل بأناملها شعره ، فيرفع إليها بصره ، ويرى أنها قد
أحبته حقاً ، وأنها كانت له : كنزه الحى من الفرح والحب .

وصرفت وصيفتها ، وشُغلت في فراشها ، والمصباح مضيء ،
بفكر واحد : ذلك كان حادثاً سخيلاً ، ولا ريب أنه أدرك سمو
حبهما على تلك الحماسة .. يا للجنون ! إنه يغار من أى إنسان .. !
كأنما يحس لسواه من الرجال في الدنيا وجوداً .. !

ثم ضاق صدرها بسكون الليل ، فنظرت إلى ساعتها ، فوجدت
أن الثانية صباحاً قد تنصّفت . فقالت في نفسها : « إنه يتألم كما أتألم ..
فلشدّ ما نظر إلى بقنوط وغضب ! .. »

وكانت محتفظة بشجاعتها وحميتها ، أما ما أنفد صبرها وأنقض
ظهرها ، فهو وجودها ههنا ، سجيناً مغلوبة على أمرها ، رهينة بيتها ..
لكنها ستكون مطلقة السراح عند وضوح الصبح . فتذهب إليه ،
وتراه ، وتبسط له كل شيء ، لأن الأمر كان جليلاً . وأصغت وهي في
سياق أفكارها الحزينة إلى قعقعة العربات ، على رصفة السين ،
الحين بعد الحين .. هذا الدوى الذي رقم لها مرور الساعات قد شغل
انتباهها ، بل كاد يكون استمالها .

سيفهم أنها أحبته ، وأنها لم تحب سواه البتة .. لكن الليل
شديد التشاغل في مروره ، فلم تجرؤ على النظر إلى ساعتها ، خشية
أن تتحقق جمود الزمن المضي .. فنهضت ، وذهبت إلى الشباك ،
وحسرت الستار ، فرأت في السماء ذات السحب ضياء ينساح

شاحباً . فظنته بزوغ النهار . فنظرت إلى ساعتها ، فإذا بها الثالثة والنصف . فعادت إلى النافذة ، وقد جذبتها ظلمات الخارج التي لا نهاية لها . فنظرت . وكان الرصيف يلمع في ضوء مصابيح الغاز . وكان يهطل من السماء القاتمة مطر صامت غير منظور . وبغته ، مَرَّق حجب السكون صوت كان عالياً ثم انخفض ، وفيه اهتزاز واختلاط حتى كأنه أصوات عدة تجادل وتضارب بعضها بعضاً ، هو صوت رجل سكران كان يقارع الرصيف ويبارز الشجر . وكان مشغولاً بحوار طويل مع كائنات أحلامه ، ساعحاً لها كرمماً منه بالكلام ، لكيما يسود عليها بعد ذلك بالحركات المفخمة والكلمات المفجمة . فرأت تریز السكران المسكين يتمايل على طول السور ، في جلبابه الأبيض ، كأنه خرقة في مهب ریح الليل ، وسمعته من وقت لآخر يردد قولاً بعينه : « هذا بلاغی لها ، للحكومة ! . . »

وأخذتها قشعريرة البرد ، فعادت إلى فراشها ، فراودها فكر مرهق : « إنه غيور ، غيور كأن ثمَّ جنّاً تسوّل له الغيرة . وتلك مسألة أعصاب ودم . بيد أن غرامه كذلك مسألة دم وأعصاب . فغرامه وغيرته سواء . إن سواه قد يفهم ، ويكفيه إرضاء كرامته ، أما هو فغيور غيرة شهوانية عجيبة . . »

وقد عرفت أن الغيرة فيه كانت عذاباً بدنياً ، قرحة دامية ،

تزيدها كلاً باتُ الخيلة اتساعاً . كما عرفت مبلغ تأصل الداء وعمق غوره . وحدث أن رآته أمام التمثال البرنزي لسان مارك يشحب لونه عند ما ألقت خطاباً في صندوق البريد ، ولم يكن إذذاك قد قضى منها وطراً في غير أحلامه . . . وتذكرت شكاته المكثمة ، وأحزانه الباغته ، فيما بعد ، بعد القبلات الطويلة ، وخفية الكلمات الأسيفة التي كان يرددها بلا انقطاع : « يجب أن أسلوك فيك ! » . . . وشاهدت بعين خيالها الخطاب الذي تلقته في دينار ، ويأسه المفزع لكلمة سمعها على خوان مطعم ، فشعرت أن الضربة قد وقعت مصادفة على الموضع الحساس ، على القرحة الدامية . . . لكن نفسها الجميع لم تذهب شعاعاً . فستقول كل شيء ، وتبوح بكل شيء ، وإن اعترافاتها كلها لصارخة : « أحبك ! ولم أحب يوماً سواك ! . . » وأخذ مصباحها يخبو ، فلم يعد غير ذبالة مدخنة . فأشعلت الشموع . وكانت الساعة السادسة والنصف . فاستبان أنهما نامت فهرعت إلى النافذة ، وكان الجو القاتم يبدو بامسه الأرض كأنه وإياها يكوّنان بحراً واحداً من الظلمات الكثيفة . . . وكان وقع أقدام العمال الثقيلة وهم يسرون جماعات ، ودوى عجلات اللبن وعربات الخضر ، قد طرق سمعها كبشير بالخير ، فانتفضت لهذه العلامات الأولى المنبئة باستيقاظ المدينة ، كما انتفض العصفور بالله القطر .

في الساعة التاسعة ، وجدت البواب وزوجته في ارتباك لأن
 چاك دى شارتر لم يعد إلى البيت بعد . . . فقالت تيريز إنها
 ستنتظره . . فسارت بها مدام فوزلييه إلى بهو الاستقبال ، حيث
 أوقدت نار الاصطلاء . . وطالعت تيريز وجهها في المرآة ، وكان ذابلاً
 على اشتعال خديه ، وعندئذ فقط تحققت من برودة قدميها كالجليد ،
 فقاربت النار . . ولما رأتها الوصيفة قلقة ، حاولت أن تروِّح
 عنها بكلمة :

— لن يطول غياب مسيو چاك ، فهل لسيدتي أن تصطلي
 في انتظاره ؟ . .

وكان المطر يُليح على سقف الاستوديو الزجاجي ، وللنهار
 غُبسة بلون الرماد . وتيريز ترقب الباب بعينين مشتعلتين . . وظلت
 هكذا بلا حراك ولا تفكير أمداً لم تعرف مداه . ربما كان نصف
 الساعة . . فإذا بوقع خطأ ، وفتح الباب ، ودخل ، فرأته مبلاً
 موحلاً ملتهباً بالحُمى . . فنظرت إليه نظرة فيها من الإخلاص
 والصراحة ما أدهشه ، غير أنه ما عثم أن تنبهت فيه كل أوجاعه . .
 فقال لها :

— ماذا تبغين مني أيضاً بعد ما بغيت عليّ؟! إنك ألحقت بي
كل ضرر في وسعك أن تلحقه ..

وكسبه التعب لطفاً، فانزعجت، وسألته أن يستمع إليها، فأشار
أن ليس هناك ما يسمعه منها .. فأقسمت أنها ما خدعته، وما كان
ذلك بالإمكان .. فقاطعها، يسألها الرحمة به، فلا تزيد في إيذائه،
فلو أنها عرفت كيف قضى ليلته لما جرؤت على الاستمرار في تعذيبه ..
وسقط على كنبه، حيث كان قد قبّلها تحت خمارها، منذ ستة شهور ..
وكان قد سرى سواد ليله، حيثما ساقته قدماه . سار ونهر السين
حتى وجد ضفتيه مزدهرتين بشجر الصفصاف والخور . وحاول التلهي
بالمريّات ليسكن أوجاعه، فشاهد، على رصفة « برسى »، القمر وهو
يجرى في السحاب، وظل يرقبه ساعة، فرآه يتقنّع ثم يسفر، ويختفي
ثم يظهر .. وبعد ذلك راح يشتغل بإحصاء نوافذ البيوت إحصاءً
دقيقاً! .. وبدأ المطر ينهمر، فيمم سوق الخضر، وشرب خمرًا في
حان . فقالت له امرأة بدينة ضخمة، في عينها حول: « لا أراك
رخيّ البال! » ..

ومرت أمام عينيه رؤى تلك الليلة الحزينة .. فقال :
— ... فذكرت ليلة نهر الأرنؤ .. يا ويلاك! إنك أفسدت
عليّ كل فرح في الدنيا وكل جمال ...

وتوسل إليها أن تتركه وحده ، لأنه يود أن ينام .. لا أن يموت .. فالموت يخيفه ويرعبه .. لكنه يود أن ينام ولا يستيقظ أبداً .. وراها أثناء ذلك أمامه ، مشتتة ، مرغوبة كما كانت من قبل . فنظر إليها ، وبحث فيها بالنظر الشزر عن آثار الملاحظات التي لم يصدقها عليها .. فهدت إليه ذراعيها سائلة إياه أن يستمع إليها .. فأشار أن كلامها من عبث الأمور ... ومع ذلك فقد أراد أن يستمع إليها ، وكان مصغياً بتلهف ، وكان ما ستقوله موضع سخطه ورفضه سلفاً .. لكنه كان ذلك وحده كل ما يهيمه في الوجود .. فقالت :
— إنك اسطعت الظن بأنى خدعتك ، بأنى لم أعش فيك وحدك ، ولك وحدك . ولكنك لا تفهم إذن شيئاً ؟ أفلا ترى أنه لو كان هذا الرجل عشيقى لما احتاج إلى أن يكلمنى فى دار التمثيل ، فى تلك المقصورة ، وكان عنده ألف وسيلة أخرى ليعطينى موعداً .. يا ويحى ! هذا محال يا حبيبى . فأؤكد لك أننى منذ حظيت بسعادة — وحتى اليوم ، وأنا منبوذة معذبة ، ما زلت أقول بسعادة — معرفتك ، كنت كلنى لك . كيف كان يسعنى أن أكون لرجل آخر ؟ ! إنه فظيع ، فظيع هذا الذى تتخيله .. لكننى أحبك ، أحبك ! ولا أحب غيرك . ولم أحب أبداً سواك ..
فأجابها متأنياً ، بتمعن قلبي :

— « سأكون في الساعة الثالثة من صباح كل يوم في بيتنا
بشارع سبوتيني » ...!! أليس هو عشيقك ، عشيقك الذي قال
هذا؟! لا! إنه كان أجنبياً عنك ورجلاً مجهولاً منك! ..

قمهضت ، وقالت برزانة ووجوم :

— بلى . لقد كنت له . وأنت تعرف ذلك . وقد أنكرته ،
وقد كذبت ، إبقاءً عليك من الألم والضييق ، لكن ما أقل
ما كذبت وما أضره ! فقد عرفته ، فلا تلمني عليه ، فقد عرفته ،
وكنت تكلمني دائماً عن الماضي ، ثم إنه قيل لك ذات يوم في مطعم ،
فتصورت أكثر مما كان . ولم أخدعك بكذبي ، فلو علمت تفاهة
شأنه في حياتي! .. ذلك أنني لم أكن أعرفك .. ولا أعرف أنك
سوف تأتي .. وكنت مرهقة بالسامة والضرر ..

وجشت على ركبتيها قائلة :

— أخطأت ، وكان عليّ أن أنتظرك .. لكن لو عرفت كيف
أن كل ما كان لم يعد كائناً ، وكأنه لم يكن قط! ..

وكان صوتها شجياً بحلاوة الشكاة ورخامة الغناء في قولها :

— فلم لم تأت قبل ذلك ؟ لماذا ؟

وزحفت إليه ، وحاولت أن تتناول يديه ، وتضم ركبتيه ..

فدفعها عنه :

— كنت غيباً فلم أعتقد ولم أعرف وكنت معترماً ألا أعرف ..
ونفض .. وفي سورة سخطه قال :

— كلا ، لا أستطيع احتمال أن يكون هو ذاك الرجل ..
فجلست على الديوان الذي تركه ، وجعلت تنن وتكلم في
انخفاض صوت ، تفسر الماضي : ففي ذلك الزمن كانت وحيدة ملقاة في
بيئة مبتذلة فارغة إلى حد مروع . فحدث ذلك .. فأذعنت .. ولكنها
ما لبثت أن قرعت سنّ الندم . أواه . فلو عرف مبلغ ما أمضها ذلك
وأرمضها ، وما كانت قد وصلت إليه حياتها من كد وكدر ، لما
كان غيوراً ، بل لرثى لها ..

وهزّت رأسها ، ونظرت إليه من خلال صفائر شعرها
المشعث .. وقالت :

— لكنني أحدثك عن امرأة أخرى ، ولا شأن لي بتلك
المرأة .. فإنني لم أوجد إلا منذ عرفتك ، منذ ما كنت لك ..

فطفق يسير في الحجرة بخطا واسعة غير منتظمة ، كما سار منذ
قليل على شاطئ السين ، ثم انفجر ضاحكاً ضحكة صفراء :

— أجل ، ولكن في حين كنت تحبينني ، ماذا جرى لتلك
المرأة التي تزعمين أنها ليست أنت ؟ .. أو لم تريه ثانية في فلورنسا ؟
أو لم توصليه إلى المحطة ؟

فأخبرته كيف تعقبها إلى إيطاليا ، جاداً في طلبها ، وكيف قابلته ،
ثم قطعته ، وأنه سافر غضبان أسفاً ، وأنه من ذلك الحين حاول
استردادها ، ولكنها لم تعره حتى التفاته :

— أي حبيبي ، إني لا أرى .. إني لا أعرف إنساناً في
الدنيا سواك ! ..

فهزَّ رأسه :

— إني لا أصدقك !

فهاجها :

— لقد أخبرتك بكل شيء ، فاتهمني ، وأدني ، ولكن
لا تسبني في حي لك .. فهذا ما أدفعه وأمنعه .

— دعيني ! .. لقد أسأت إليَّ وأذيتني . فلشدَّ ما أحبتك ،
حتى إن كل الآلام التي قد تصيبني منك كنت أقبَّلها وأحفظها
وأحبها .. لكن هذا الشيء فظيع . وإني أمقته .. فدعيني . إن عذابي
لشديد .. فوداعاً .

فوقفت ، مستقيمة العود ، وقدمها الصغيرتان مسمرتان في
البساط ، وقالت :

— لقد أتيت : وإنها سعادتي ، إنها حياتي التي أنازع فيها ،
وأجاهد في سبيلها .. وإني كما تعرف عزيزة الرأي ، فلست ذاهبة ! .

وأعادت كل ما قالته ، مشددة ، مخلصه ، واثقة من نفسها ،
وحقها ، موضحة كيف قطعت ذلك القيد الذي كان من قبل رخواً ،
وقد عقرها ، وضيق أنفاسها ، وكيف أنها من يوم وهبته نفسها في
بيت شارع الفييرى الصغير لم تكن إلا له ، من دون أسف ، ومن
دون نظرة ضالة ، أو فكرة حائرة فى أىِّ سواه .. ولكنها بمخاطبتها
إياه عن رجل غيره ، أمضته وأغضبته ، فصرخ فيها قائلاً :

— لا أصدقك ! ..

عندئذ بدأت ثانية تكرر ما قالته .. وبغته ، نظرت بداهة
إلى ساعتها ، وصاحت :

— ربّاه ! .. قد انتصف النهار ! ..

ما أكثر ما كانت تصيح هذه الصيحة عندما تروعهما ساعة
الفراق .. فارتجف چاك لسماعه هذه الكلمات المعهودة التى أصبحت
الآن محزنة مؤسفة تبالغ فيها الهمُّ وتناهى .. ومكثت بضع دقائق
أخرى تتهلل إليه بعبراتها وكلماتها الحارة ، ثم اضطرت للرواح ..
وخرجت صفر اليدين بصفقة المغبون .

وجدت فى البيت بعض النساء مندوبات الجمعيات الخيرية ،
ينتظرنها فى البهو ، ليقدمن إليها طاقة زهر .. فذكرت أن زوجها

صار وزيراً .. وكانت هناك أكوام البرقيات والبطاقات والخطابات
والتهاني والمطالب .. فدخلت قاعة الطعام ، وسقطت إعياء على
مقعد .. وكان الكونت مارتن بليم يتم غداءه ، وكان عليه العود
لساعته إلى مجلس الوزراء ، ثم المرور على وزير المالية المعتزل
لزيارته ، فقال :

— لا تغفلي يا صديقتي العزيزة عن زيارة مدام برتبيه ديزل
(حرم رئيس الوزراء) فأنت تعرفين سرعة تأثيرها ..

فلم تجب .. وبينما كان يغمس أصابعه الصفراء في الإناء
البلوري ، رفع رأسه فرآها منهوكة القوى ، مشوشة الهيئة ، بحيث
لم يجرؤ على أن يزيد على ما قاله كلمة .. ألقي نفسه مواجهاً سرّاً أثر
أن يجهله ، وأمام حزن قد يشيره لفظ واحد ويفجّره ، فخامره من
ذلك قلق وخوف وضرب من الاحترام .. فألقى منشفته قائلاً :
« أستاذك يا صديقتي العزيزة » ، ثم خرج ..

فحاولت أن تأكل ، فلم تقدر أن تردد شيئاً .. وشعرت بأن
كل ما أمامها يقزز نفسها فلا يذاق ولا يطاق .

وفي نحو الساعة الثانية ، عادت إلى البيت الصغير بحى
لوترن فوجدت چاك في غرفته ، يدخن غليونه ، وأمامه على
المنضدة فنجان قهوة كاد يفرغ .. فنظر إليها بجفاء أثلج الدم في

عروقها ، فلم تجرؤ على الكلام ، شاعرة بأن كل ما ستقوله سيصدعه
ويزهقه .. فإن مجرد ظهورها في رزانة وصمت قد أحفظه وأضرم
سخيمته .. وقد عرف أنها ستعود ، فانتظرها بفروغ صبر الحقد ،
وبقلبٍ صَادٍ مشوق كالذي انتظرها به من قبل في بيت شارع
الفيرى .. فرأت بامحة أنها أخطأت بقدمها ، فإنها كانت بغيابها
عنه ، وامتناعها عليه ، تجعله يشتهيها ويحن صباة إليها ، وقد يدعوها
ويناديها .. لكن كان قد سبق السيف العذل .. زد على هذا أنه
لم يخطر لها أن تكون حصيفة حذوراً .. فقالت :

— ها أنت ذا ترى أنني قد رجعت ، ولم يكن يسعني غير
ذلك ، ثم إن هذا طبيعي ما دمت أهواك .. وأنت تعرف .
فشعرت أن كل ما في وسعها أن تقوله لن يزيد إلا سخطاً ..
وسألها : أضربت كثيراً على هذه النعمة في بيت شارع سبوتيني ؟
فنظرت إليه بالأم مبرح :

— چاك ! إنك كثيراً ما قلت لي إنك تحتفظ في صميم قلبك
بالحقد والكره .. وأرى جلياً أنك تحب إيلاي ..
وبصبر حبها ، عادت فروت له تفصيلاً حياتها كلها ، وفراغ
ماضيها وكآبته ، وأنه مذ جعلها له لم تعد تعيش إلا به ، وفيه ..
وكانت أقوالها تخرج صافية كنظراتها ، وكانت جالسة بقربه ،

فيشعر، الفينة بعد الفينة، بامسة أناملها التي صارت الآن خجلة،
وبشدة حرارة أنفاسها. فأصغى بشراة قاسية. بل كان قاسياً على
ذات نفسه، فأراد أن يعرف كل شيء عن مقابلاتها الأخيرة مع ذلك
الرجل... والقطيعة... فروت له صادقة كل ما حدث في فندق
لاجراند بريطانيا. لكنها نقلت المنظر خارجاً، إلى إحدى
الطرق، خشية أن تؤلم حبيبها أيضاً صورة ذلك اللقاء المحزن بين
أربعة جدران... ثم فسرت لقاء المحطة. فإنها لم ترد أن تلتقي في مهاوى
اليأس والتهور رجلاً مولعاً مقهوراً. وهي من ذلك العهد لم تسمع به
حتى يوم مخاطبته إياها بشارع مكاهون. وأعادت ما قاله تحت ظل
الشجرة، وكيف أنها رآته بعد يومين في مقصورتها بالأوبرا. وهي
بالتأكيد لم تشجعه على الحضور. وهذه هي الحقيقة.

كانت هي الحقيقة. بيد أن السم القديم الذي تراكم فيه قليلاً
قليلاً كان يفعل فعله، ويفرى لحمه. فلما مضى، الماضي الذي يستحيل
إصلاحه، قد جعلته حاضراً باعترافها وإقرارها، فشبه له، وعذبه:
— إنني لا أصدقك، على أنني لو صدقتك، فلا أقدر أن أعود
فأراك، لمجرد فكرة أنك كنت يوماً لذاك الرجل! وقد قلت كل
ذلك وكتبته لك، وأنت تذكرين، حين كنت في دينار، لا أريد
أن يكون هو ذاك...

وبقيا صامتين طويلاً ، وأخيراً قالت بنعمة نائحة غريبة :
— ولكن يا حبيبي ، في كل يوم يحمل النساء إلى أحبابهن مواضي
مثقلة بأكثر من ماضٍ ومع ذلك يُعشقن .. وامرأة مثلي ، متزوجة
على نحوى .. ثم آه لو عرفت كم كان ماضٍ لا وزن له ! ..
— أعرف ما منحته ، ولا يمكن للمرأة أن يغتفر لك ما يغتفره
لسواك ...

— ولكني يا حبيبي كسواى من النساء .
— كلا ، لست كغيرك من النساء . فلا شيء فيك يمكن
التجاوز عنه ..

وتكلم مقفل الفم ، وأسنانها تصرّ .. وعيناه ، تانك العينان اللتان
قد رأتهما كبيرتين مضيئتين بلهيب الحب اللذيد ، قد حالتا الآن
جافّتين ، جافّيتين ، غائرتين وراء جفونهما المتكسرة ، ولهما نظرة
غريبة ، فأخافها .. فذهبت إل آخر الغرفة ، واتخذت مجلساً ، وهناك ،
والقلب ضائق والرموش محتلجة عجباً ، ظلت طويلاً ترتعش ، كطفلة ،
وهي مختنقة بالزفرات ، ثم انفجرت باكياً .. فتهد قائلاً :

— لماذا قدّر على أن أعرفك ؟

فأجابته ، غاصّة بدموعها :

— أما أنا فما أندم على أنى قد عرفتك .. إني أقضى من ذلك

نحبي وألقى حثقي ، ولست نادمة .. فقد أحبيت .
فأصرّ جأراً على أن يؤلم قلبها ويقصم صلبها ، وقد عرف شناعة
فعله ، ولم يستطع له دفعاً ..

— قد يجوز أنك بعد هذا كله أحبيتني أنا أيضاً ..

فأجابته ، شرقة الجفنين بالدمع :

— لكنني لم أحب سواك ، وقد شغفتني حباً . وهذا الذي من
أجله تقتصّ مني الآن .. يا ويلتنا ! كيف يعلق بوهمك أنني كنت
يوماً لغيرك ما كنت لك ! .. بالله قل لي ، أحقاً أنك لا تصدقني ؟ ..
أفتصدقني إذا أنا قتلت نفسي ؟ .. !
— كلا ، فلا أصدقك .

فرفعت عينيها اللامعتين من خلال دموعها ، قائلة :

— إذن قضى الأمر !

ونفضت ، ونظرت ثانية إلى ما في الغرفة من عشرات الأشياء
التي عاشرتها في ألفة غرامية ضاحكة ، وجعلتها لها ، واتخذتها ولية حميمة ،
والتي لم تعد بالنسبة إليها الآن شيئاً مذكوراً .. فنظرت إليها هذه
الأشياء نفسها كأنها غريبة أجنبية عنها وعدوة لدود لها ! .. فرأت
المسكوكات الفلورنسية التي أذكرتها فيزول وأوقاتها المسحورة ..
ثم وقفت لحظة ، عاطفة ، أمام دمية تلك الصبيّة ، كلارا ، بائعة

الصحف ، التي قد أتت هي أيضاً إلى هذا المكان ، ثم اختفت
محمولة في اللانهاية المروعة ، لانهاية الحياة والكائنات ..

وكررت : « إذن قضى الأمر » .. فلم ينبس .. فقالت : « ترى
ما يكون مصيرى ؟ » . فأجاب : « وأنا ، فما يكون مصيرى ؟ » ..
ثم نظر كلاهما إلى صاحبه مشفقاً ، لأن كلاهما كان يفيض
شفقة على نفسه .. فقالت تريز أيضاً :

— وأنا التي كنت أخشى من الكبر لأجلك ، ولأجل نفسى ،
كَيْما لا ينتهى حبنا الجميل ! فليت القدر لم يتمخض به ! .. أجل .
إن الأولى ألاً أولد .. أما من وسيلة لأجعلك تشعر بأن ما أخبرك
هو الصدق ، وأنه لم يحدث أصلاً مذ كنت لك .. أصلاً ! ..
كن أنى لى ... إن الفكرة المجردة تبدو لى فظيعة منكورة ...
كون معرفتك بى إذن قليلة إلى هذا الحد ؟ ..
فهز رأسه بحزن قائلاً :

— كلا ! فلا أعرفك ! ..

فتميزت من الغيظ ، ونظرت متسائلة مرة أخرى إلى ما حولها
أشياء ، هي شهود غرامها ، وقالت :

— ولكن كان إذن عبثاً أن كان كل منا لصاحبه .. كان نافلة ..
وإلا محض لقاء عَرَضى .. ولم نجتمع فنكون شخصاً واحداً ! ..

وفي حميًا هواها الكسير المغلوب ، أَلقت بنفسها بين ذراعيه ،
وغطته بالقبلات ، والعبرات ، والصيحات ، والنهشات .. فَنسى كل
شيء ، وأخذها بين ذراعيه ، متوجعة منكسرة ، ولكن سعيدة ،
وَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، عَنيفَ العاطفة نائرها ، ليقضى لُبانات الفؤاد المعذب ..
وكانت منكسة الرأس على الوسادة ، تبسم له من خلال الدموع ...
فانتزع نفسه منها بغتة ، قائلاً :

— إني لم أعد أراك وحدك ، إني أرى الآخر معك ، دائماً .
فنظرت إليه ، صامتة ، حائقة ، قانطة ..

ونَهَضَتْ ، وأصلحت من ثوبها وشعرها باستحياء غريب
ثم إذ تحققت أن قد قُضِيَ الأمرُ ، وَحُمَّ الهجرُ ، قَلَبَتْ فيما حو ،
بنظرة دهشة ، عينيها اللتين ابيضستا من الحزن ، فما عادتا تريان ش
وخرجت متساقلة ...



DATE DUE

6.12.10154
1.1388251x

HANNA ELIAS GARGIS 74/1736

JUN 3 1975

House S.A. House

APR 28 1975

82/222

Ahmad al-Sawi.

PJ
7692
F8
M8
1943

PJ
7692
F8
M8
1943

Muhammad, Ahmad al-Sawi.
al-Asiyah.

HANNA

HANNA ELIAS GARGIS 74/1736

JUN 3 1975

HSCGARGIS

OCT 29 1975

House S.A. House

PJ
7692
F8
M8
1943

